

...سكرية الإسلامية في العصور الوسطى

حطين وعين جالوت

دراسة تحليلية عسكرية

عكا
حيفا
حطين
بحيرة طبريا
صفورية
كفرسبت


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

العسكرية الإسلامية في العصور الوسطى

حطين وعين جالوت

دراسة تحليلية عسكرية

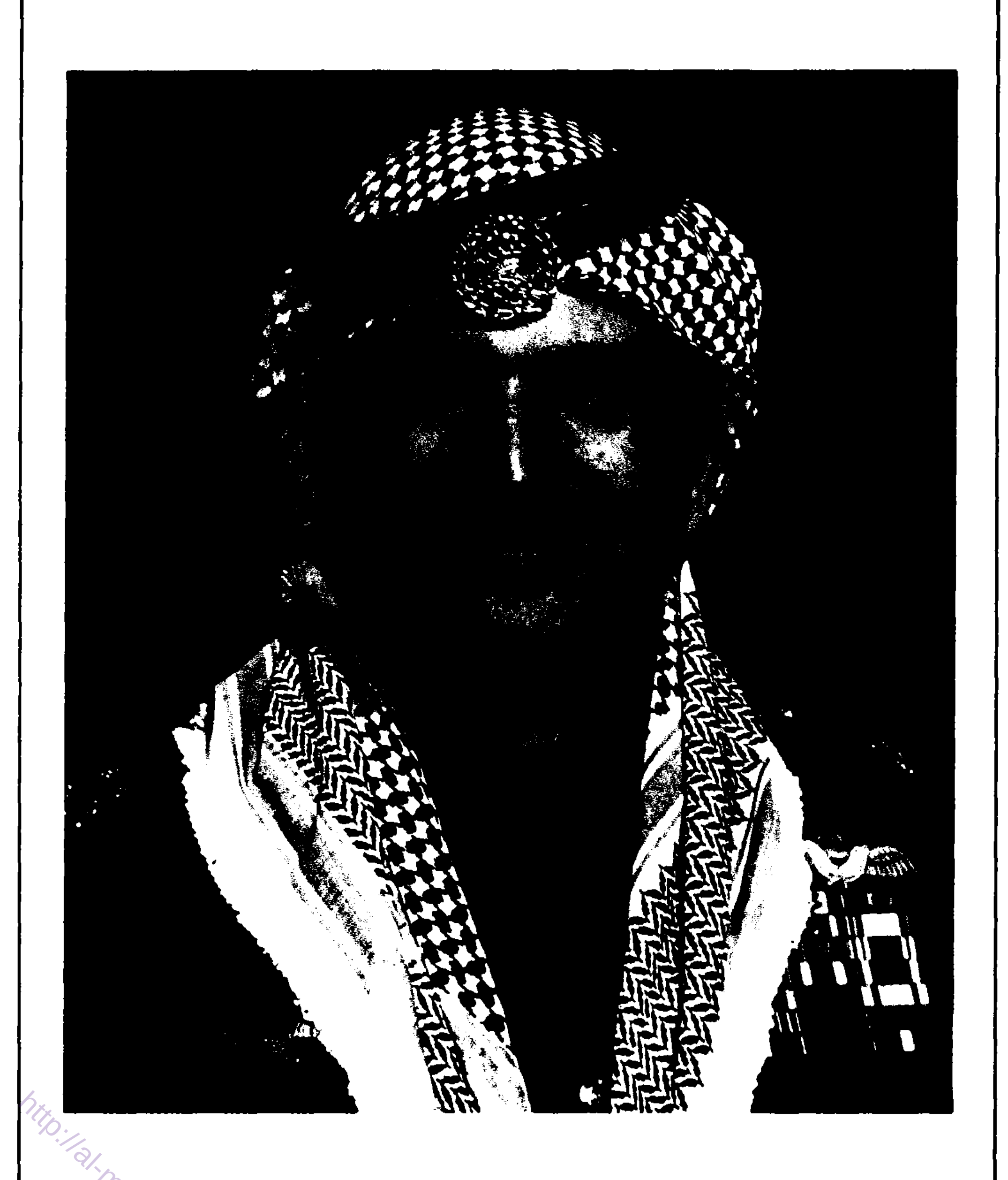
الطبعة الاولى ١٩٨٧

تأليف
العقيد الركن / قاسم محمد صالح

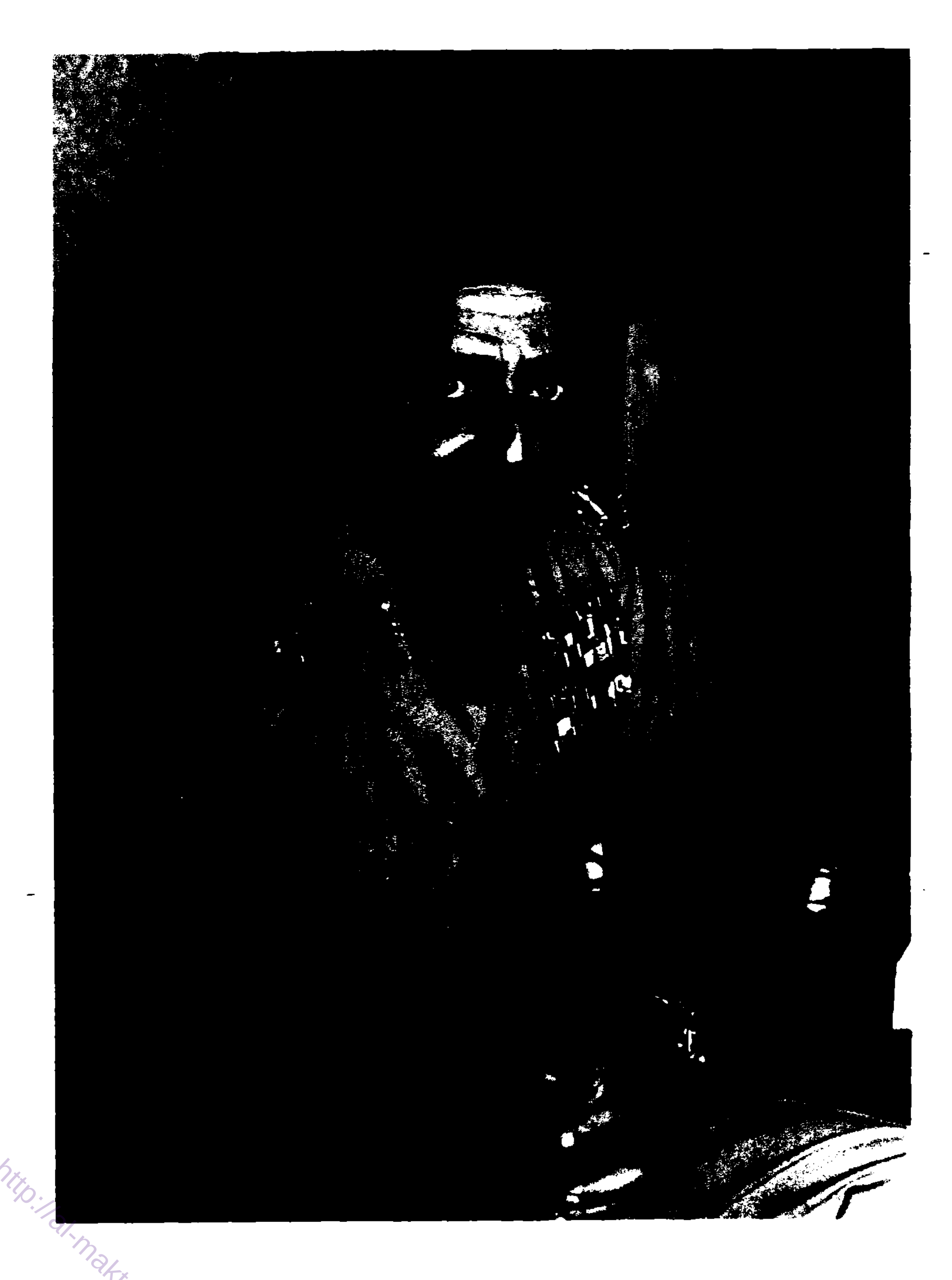
رقم الايداع د.أ ٢٥٥/٦/١٩٨٧



حضرة صاحب الجلالة الملك الحسين بن طلال المعظم



حضرة صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال المعظم



سيادة المشير الركن الشريف زيد بن شاكر


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

حديث شريف

لاتزال طائفة من امتي على الحق ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من جابههم ولاما اصابهم من اللاواء حتى يأتيهم امر الله وهم كذلك .

الصحيحين

وفي رواية لاحمد قالوا يارسول وايـن هم قال : ببيت المقدس واكناف بيت المقدس .

اهداء

إلى جلالة الملك الحسين المعظم قائد هذا الجيش المصطفوي الذي حباه الله شرف المرابطة في اكناف بيت المقدس وإلى تلك الارواح الزكية الطاهرة التي عبقت بأريج انفاسها رُبى الأردن وامتزجت دماؤها بتراب هذا الطهور وإلى كل الذين صدق فيهم قوله تعالى ،، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ،، صدق الله العظيم

اقدم هذا الكتاب راجياً منه تعالى العون والتوفيق

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تعتبر الدراسات والبحوث العلمية المتخصصة من ابرز النشاطات الفكرية والعقلية التي تميز نهضة الامة، وتضفي عليها طابع الجدة والموضوعية والاصالة. ولئن عرف التاريخ العربي الاسلامي منهجية علمية في الدراسات وثبت المراجع، فان الباحثين والمفكرين في مسيرة الامة العربية الاسلامية عرفوا بالموسوعية في عالم المعرفة.. ولكن طبيعة المعرفة، وحجمها وتفجرها في العالم المعاصر تجعل التخصص سمة أساسية للبحوث والباحثين. وتأتي هذه الدراسة في (العسكرية الاسلامية في العصور الوسطى) نموذجاً من نماذج البحوث العسكرية المتجددة للتحليل والتعمق في (حطين وعين جالوت).. فقد درست اجيالنا

بحماسة وعاطفة متميزتين هاتين المعركتين واهميتهما في تاريخ الامة، ولكننا في اشد الحاجة الى دراستهما بمنهجية علمية تتناول بالتحليل الابعاد المتكاملة التي تحيط بهما، والرؤية الاستراتيجية والتخطيط الشمولي والنتائج والدروس والعبر عن هاتين المعركتين.

كما تأتي اهمية هذه الدراسة العلمية في وقت تحتفل فيه امتنا، كما يحتفل الاردن بشكل خاص، بذكرى مرور (٨٠٠) ثمانمائة عام على معركة حطين: تلك المعركة التي تمثل مواجهة حضارية حاسمة بين ثقافتين: الثقافة العربية الاسلامية والثقافة الأوروبية.. وما زالت هذه المواجهة قائمة ومستمرة، على الرغم من تطور المعارف وتفاعل الحضارات المختلفة، ومساهمة الامم في صنع الحضارة الانسانية الواحدة.

ومما ينبغي الاشارة اليه حول عنوان هذه الدراسة، انها تبحث في مفهومين اساسيين: اولهما مفهوم العسكرية الإسلامية في التاريخ الاسلامي، وقدرتها على مواجهة الاحداث بعقلية ابداعية، وثانيهما مفهوم العصور الوسطى، وهي عصور ارتبطت تاريخياً وجغرافياً وسياسياً بالعقلية الاوروبية، ونتج عنها ذلك السلوك (العدائي) لكل ما هو (غير اوربي) ولكل (ما هو اسلامي) بشكل خاص. فالحضارة الاسلامية لم تعرف في مسيرتها ما يسمى (بالعصور الوسطى) حيث كانت الحقبة التاريخية التي سادت اوربا بعقلية العصور الوسطى هي حقبة ازدهار علمي في العالم الاسلامي.

ومما تجدر الاشارة اليه ايضا، ان هذه الدراسة تمثل نموذجاً من العقلية العسكرية المتفتحة التي نمت وترعرعت في مسيرة الجيش العربي الاردني المصطفوي، الذي حمل راية الثورة العربية الكبرى التي فجرها الشريف حسين الهاشمي، وورثتها الاسرة الهاشمية، ورعاها جلالة القائد الاعلى للقوات المسلحة الاردنية الحسين بن طلال، عطاء وتضحية، عبر المسيرة الاردنية الخالدة.

وان الباحث العسكري العقيد الركن قاسم محمد صالح، احد جند هذه المسيرة، يقدم لنا هذه الدراسة لتحتل مكانا بارزاً، وربما شاغراً حتى الآن، في المكتبة العربية الاسلامية، ولتكون وثيقة مرجية لدارسي التاريخ العربي الاسلامي، وبخاصة الجانب العسكري منه، حيث يلمس الدارس لها بوضوح المنهجية العلمية موثقة بالخرائط العسكرية التاريخية، وتحقيق المصادر، وثبت المراجع، مما يجعله يدرس (فكراً عسكرياً) يشير الى نضج عقلية عسكرية اردنية واعية، قادرة على الابداع والتفوق في التاريخ العسكري للمسيرة الاردنية بقيادة رائدها وباعث نهضتها وباني منعتها جلالة الحسين المفدى.

عمان ٢٦/شوال/١٤٠٧

٢٢/حزيران/ ١٩٨٧

د. عزت جرادات



المحتويات

الباب الأول

معركة حطين

الباب الثاني

معركة عين جالوت

الباب الأول

معركة حطين

الفصل الأول


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

بسم الله الرحمن الرحيم

معركــة حطيــن

١ ـ لمحــة تاريخيــة:

لقد مثلت معركة حطين عام (١١٨٧) ميلادية ذروة الاستجابـة الاسلاميـة في مواجهة الهجمة الفرنجية الغاشمة على بلاد الشام وفلسطين وهي وإن لم تكن استجابة فورية ـ إذ نجح الغزاة في إقامة أربع إمارات صليبية لهم فيها ـ إلا أنهـا تمثل الرد الاسلامي الحاسم في تاريخ الحروب الفرنجية الاسلامية.

إن مرحلة استيعاب الفرنجة واحتوائهم كانت طويلة إذ استنزفت من حياة الأمة ما يزيد على ثلاثة أجيال بشرية وهذا يفرض على الباحث ـ سواء أكان مؤرخاً أم محللاً عسكرياً ـ عبئاً كبيراً إذ يتطلب منه أن يستعرض شريط الأحداث لأعظم أمتين على وجه الأرض وقد ألقتا بثقلهمـا في مواجهـة عسكريـة ضمن مسرح للأحـداث يمتـد من القسطنطينية شمالاً إلى مصر واليمن جنوباً ومن العراق شرقاً إلى البحر الأبيض المتوسط غرباً.

كما يتطلب من الباحث أيضاً أن يتابع بـدقة مسـألة تنامي القـدرة الدفاعيـة الإسلامية خلال هذه الفترة الطويلة وانتقالها من مرحلة التراجع والانحدار أمام الهجوم الفرنجي خلال المدة بين عامي (١٠٩٧ ـ ١١٢٧) إلى مرحلة الدفاع المتوازن خلال المدة بين عامي (١١٢٨ ـ ١١٦٩) وأخيرا الى مرحلة الهجوم الفعال الذي بلغ ذروته في حطين عام (١١٨٧) وما كان يجري في المعسكر الفرنجي كذلك من هجوم فعال خلال المرحلة الأولى إلى دفاع متوازن خلال المرحلة الثانية ثم إلى تراجع واحسار خلال المرحلة الثالثة.

إن الباحث العسكري وهو يتابع شريط الأحداث وينتقل بذهنه بين المعسكرات الاسلامية والفرنجة لا بد له أن يتساءل حول الأسباب التي حدت بالفرنجة الى اجتياح بلاد الشرق الاسلامي وأن يدرس الظروف التي كانت تسود هذه البلاد والتي مهدت السبيل لعملية الاجتياح الفرنجي لها أو ساعدت عليه.

سأستعرض في الصفحات التالية بشكل موجز الأوضاع العامة في البلاد العربية قبيل الحروب الفرنجية ـ الاسلامية من الناحيتين الدينية والسياسية لما له من أثر فعال في ميزان القوة العسكرية وكذلك الأسباب التي دفعت بالفرنجة الاوروبيين لغزو بلاد المشرق الاسلامي.

كما سأستعرض في تحليل عسكري، مراحل تنامي القوة العسكرية وانحسارها في المعسكرين الفرنجي والاسلامي وكذلك الرؤية العسكرية على المستوى الاستراتيجي. وسأناقش بعد ذلك الخطة الميدانية للطرفين المتحاربين والأسلوب الذي استخدمه كل فريق منهما خلال مرحلة الاشتباك الحاسم في حطين، وسأختم ذلك بالدروس المستخلصة من هذا الصراع الطويل الذي استمر قُرابة قرنين من الزمن.

٢ ـ أوضاع الوطن العربي قبيل الحروب الفرنجية الاسلامية:

أ ـ الحالـة الدينيـة:

عندما غزا الفرنجة ديار الاسلام في القرون الوسطى كان فيه خلافتان بالاضافة إلى الخلافة الأموية في الأندلس وهاتان الخلافتان هما:

(١) الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر.

(٢) الخلافة العباسية السنية في بغداد.

وكانت هاتان الخلافتان في صراع مستمر مذهبياً وسياسياً أما صراعهما المذهبي فيرجع إلى الاختلاف في فهم المسائل الدينية ولا تتسع هذه الدراسة إلى الاسهاب في تفصيله وأما صراعهما السياسي فيرجع إلى محاولة كل منهما توسيع سيطرتها على حساب الأخرى وقد كانت بلاد الشام وفلسطين معقد الأمل لكل منهما لبسط سلطانها عليها.

ومما ساعد في إذكاء هذا الصراع سيطرة (البويهيين) الشيعة على زمام الأمور في بغداد وامتلاكهم مقاليد الحكم فيها حيث أصبح الخليفة العباسي لا يستطيع السيطرة على شيء خارج حدود قصر الخلافة.

لقد سعى الفاطميون في عهد خليفتهم (المستنصر) ـ الذي دأب على مناوأة الخلفاء العباسيين[١] ـ إلى التقرب من البويهيين الشيعة وتحريضهم ضد الخلفاء العباسيين وقد نجح داعية الفاطميين (أبو الحارث البساسيري)[٢] في اشعال الثورة ضد الخليفة العباسي (القائم) كما تمكن من دخول بغداد في شهر ذي القعدة سنة (٤٥٠) هجرية بالرايات المستنصرية فسجن الخليفة العباسي ودعا للخليفة الفاطمي المستنصر على منابر المساجد ودانت له السلطة في بغداد وما حولها عاماً كاملاً حتى عاد السلطان السلجوقي (طغرل) إلى بغداد بتوسل من الخليفة العباسي (القائم) فقضى على حركة البساسيري وقتله وأخرج الخليفة العباسي من السجن وأعاده إلى قصره مكرماً معززاً، واستمر سلاطين السلاجقة بعد ذلك في المحافظة على وجود الخلافة العباسية ـ سيما وأن السلاجقة كانوا يعتنقون المذهب السني ـ حتى اجتاح المغول بغداد عام (٦٥٦ هجرية) الموافق (١٢٥٨) ميلادية فدمروا بغداد وأبادوا سكانها وأزالوا الخلافة العباسية نهائياً وكان (صلاح الدين الأيوبي) قبل ذلك قد أزال الخلافة الفاطمية من مصر عام (١١٧٠) ميلادية.

ب ـ الحالـة السياسيـة:

لم تكن الحالة السياسية في الوطن العربي في العصور الوسطى أحسن حظاً من الحالة الدينية فعلى الرغم من محافظة سلاطين السلاجقة على الخلافة العباسية من

(١) دكتور حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام، المجلد الرابع، دار الاندلس، بيروت، ص ١٢.

(٢) ابن الاثير: الكامل، الجزء التاسع، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٩.

أطماع البويهيين الشيعة في عهد السلطان (طغرل) وعلى الرغم كذلك من قـوة الدولة السلجـوقية في عهـد خليفته السلطان (ألب أرسـلان) الذي انتصر على الامبـراطور البيزنطي (ديوجين رومانوس) عام (١٠٧١) ميلادية في معركة (ملاذكرد) المشهورة[١]، إلا أن هذه الدولة القوية الناشئة قد فقدت قوتها وانقسمت على نفسها بعد وفاة السلطان (مَلِكْشاه) عام (٤٨٥) هجرية الموافق (١٠٩٢) ميلادية[٢].

وبموت السلطان (ملكشاه) كما يقول ابن الأثير:[٣] (انحلت الدولة ووقع السيف)، (وانتهى العصر السلجوقي الأول الذي يمكن أن يسمى العصر الذهبي للدولة السلجوقية أو عصر نظام الملك)[٤].

وكانت الدولة السلجوقية في عهد (ملكشاه) قد اتسعت كثيراً فامتدت من (حدود الصين شرقاً إلى البحر الأبيض المتوسط غرباً ومن كورجيا شمالاً إلى اليمن جنوباً)[٥]، فتوارثها أبناؤه من بعده ولم يحسنوا القيام عليها فنشبت بينهم النزاعات والحروب التي أنهكت جسم الدولة ومهدت الطريق أمام الغزاة من الفرنجة الأوروبيين.

لقد احتدم هذا النزاع بين السلطان (بركياروق بن ملكشاه) وبين عمه السلطان (تتش بن ألب أرسلان) صاحب دمشق[٦] خلال الفترة بين عامي (٤٨٥ ـ ٤٨٧) هجرية الموافق (١٠٩٢ ـ ١٠٩٤) ميلادية.

وما أن استطاع (بركياروق) القضاء على عمه (تتش) عام (٤٨٧) هجرية حتى اشتعلت الحروب بين (بركياروق وشقيقه السلطان (محمد بن ملكشاه)[٧] واستمرت الحروب مستعرة بينهما لمدة خمسة أعوام أخرى خلال الفترة بين (٤٩٢ ـ ٤٩٧) هجرية الموافق (١٠٩٩ ـ ١١٠٤) ميلادية.

ونحن إذا علمنا أن بلاد الشام وفلسطين قد دخلت ضمن الدولة السلجوقية في عهد السلطان (ملكشاه) وما آلت إليه هذه الدولة من نزاعات وحروب بعد وفاته فاننا ندرك مقدار حالة الضعف والوهن التي كانت تعيشها هذه البلاد خلال فترة اجتياح جيوش الفرنجة لها عام (١٠٩٧) ميلادية وتأسيس اماراتهم فيها بعد ذلك مما جعلها فريسة سهلة المنال بين أيدي أولئك الأوروبيين المتوحشين.

٣ ـ أسباب الحروب الفرنجية ـ الاسلامية:

يمكن القول أن عملية التركيب البنائي لأي مجتمع من المجتمعات قد تؤثر سلباً أو

---

(١) ابن الاثير. الكامل. الجزء العاشر، ص ٢٢ ـ ٣٠.
(٢) دكتور حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام. الجزء الرابع، دار الاندلس، بيروت، ص ٣٣.
(٣) ابن الاثير: الكامل الجزء العاشر، ص ٧٥ ـ ٧٦.
(٤) دكتور حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام. الجزء الرابع، دار الاندلس، بيروت، ص ٣٣.
(٥) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب. ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٢٧٧.
(٦) الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الامم الاسلامية الدولة العباسية، ص ٤٣١ ـ ٤٣٣.
(٧) نفس المرجع السابق والصفحة.

إيجاباً على حركة المؤشر التاريخي لمسار الأمة التي ينتمي إليها ذلك المجتمع.

ولما كانت عملية التوازن الاجتماعي تشكل مطلباً أساسياً لنمو المجتمع وتطوره فان اختلال التوازن الاجتماعي يفسد البنية الاجتماعية ويعجل بانهيارها.

ونحن لو ألقينا نظرة فاحصة على كلا المجتمعين المتصارعين الأوروبي والاسلامي لوجدنا اضطراباً واضحاً في حركة الحياة الكامنة في بنيتيهما التركيبية خلال تلك الحقبة الزمنية من التاريخ، ولكن هناك فرقاً كبيراً في محصلة الناتج بين حركة الاضطراب عند الضعيف العاجز وبين تلك الحركة عند القوي المندفع وهي تمثل إلى حد كبير نظرية حركة السائل لملء الفراغ في الأواني المستطرقة.

فلو كانت البنية التركيبية في المجتمع العربي الاسلامي متوازنة أو لو أن قدرته العسكرية كانت متعادلة على الأقل مع القدرة العسكرية الاوروبية لكان مثل هذا التوازن كفيلاً بتحقيق العنصر الأمني المطلوب في مواجهة عمليات الغزو الفرنجي ولتلاشت حينئذ جميع الدوافع والأسباب التي تعلل بها الاوروبيون من (بابوات وأمراء أقطاع إلى تجار وشذاذ آفاق أو قطاع طرق وأغنياء حروب).

أما وقد اختلت البنية الاجتماعية وافتقد العامل الأمني المطلوب للحفاظ عليها بسبب المنازعات والحروب بين السلاطين السلاجقة فإن كل سبب مهما كان صغيراً أو تافهاً سيصبح حجة يتعلل بها المتعللون لتحقيق ما يصبون إليه من مطامع وأهداف، وقد تعلل الأوروبيون في غزوهم لبلاد المشرق الاسلامي بالأسباب التالية:

أ - أسباب دينية:

ويمكن إجمالها فيما يلي:

٢ - سوء معاملة الحجاج المسيحيين، «حيث تعرضوا للاضطهاد والمهانة خصوصاً بعد وقوع القدس بأيدي الفاطميين في عهد الخليفة الفاطمي (الحاكم بأمر الله)[١]، ولقد ازدادت هذه الحالة سوءاً في عهد السلاجقة الذين وقفوا للفرنجة بالمرصاد وأثاروا الحجاج المسيحيين الذين كانوا لشدة تعلقهم بالدين في العصور الوسطى يعتقدون أن الحج إلى بيت المقدس يؤدي إلى غفران الذنوب والسعادة الأبدية»[٢].

٢ - تدعيم مركز البابوية على الصعيدين السياسي والديني أما على الصعيد السياسي فلقد سعى البابا (غريغوريوس السابع ١٠٧٣ - ١٠٨٥) إلى تدعيم مركزه حيث قرر «أن كل سلطة يجب أن تستمد منه بصفته وريث

(١) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق. دار الآفاق الجديدة، بيروت، طبعة أولى، ص ٨٨؛ وكذلك عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ١٠ - ٣٢؛ وكذلك جوزيف نسيم: العرب والروم اللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ص ٤٠ - ١٠٠.

(٢) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام. الجزء الرابع، ص ٢٤٣.

جميع الامتيازات التي تركها القديس بطرس فلقي معارضة شديدة من ملوك أوروبا وخصوصاً امبراطور المانيا (هنري الرابع) وبقي الصراع بينهما محتدماً حتى توفي البابا عام (١٠٨٥) ميلادية[١]، أما على الصعيد الديني فلقد أحدث انتصار السلطان السلجوقي (آلب آرسلان) على الامبراطور البيزنطي (ديوجين رمانوس) في معركة (ملاذكرد) الحاسمة أحدث صدى عنيفاً في أوروبا ولهذا فقد صادفت دعوة وريث عرش الامبراطورية البيزنطية (الكسيس كومنين) في انقاذ الكنيسة الشرقية من الخطر السلجوقي الداهم»[٢] آذاناً صاغية لها في أوروبا بشكل عام وبين رجال الكنيسة الغربية بشكل خاص.

ب - أسباب تجارية اقتصادية:

يمكن أن نتبين هذه الأسباب من خلال مشاركة الأساطيل التجارية في نقل الجيوش الفرنجية إلى بلاد الشرق وخاصة تلك الأساطيل التي تعود ملكيتها لمدن ايطاليا التجارية مثل جنوة والبندقية وبيزا) (حيث تبنت المدن التجارية في فرنسا وايطاليا مشروع الحرب بحماسة فائقة)[٣].

ج - أسباب اجتماعية:

لقد وجد شذاذ الافاق واللصوص والمجرمون في توجههم نحو الشرق وانقاذ القبر المقدس من أيدي المسلمين فرصة مواتية لهم للتكفير عن جرائمهم وخطاياهم ولذلك كان هؤلاء الشواذ هم أول من لبى الدعوة واستجاب لنداء الكنيسة في أوروبا، وقد جاء في خطاب البابا (أوريان الثاني) بهذه المناسبة قوله[٤]:

(أنتم يا من تتقاتلون فيما بينكم وتضطهدون الأيتام وتفتنون الأرامل وتنتهكون الحرمات وترتكبون جرائم القتل فلتتوقفوا عن قتل اخوانكم والأحرى بكم أن تنطلقوا صوب بلاد العدو لتقاتلوا في سبيل تخليص بيت المقدس منه).

د - أسباب سياسية:

تتمثل في ضعف دولة السلاجقة بعد موت (ملكشاد) عام ١٠٩٢ ميلادية وتفتت هذه الدولة بسبب شدة النزاعات والحروب بين سلاطينها (بركياروق، تتش، ومحمد) خلال الفترة بين (١٠٩٢ - ١١٠٤) وهي الفترة التي اجتاحت فيها جحافل الفرنجة بلاد المشرق الاسلامي وأسسوا فيها مملكة بيت المقدس والامارات الصليبية الأخرى.

---

(١) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق. ص ٨٢ - ٨٤.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٣) نفس المرجع السابق. ص ٩٢؛ وكذلك تاريخ الاسلام السياسي. الجزء الرابع. ص ٢٤٤؛ وكذلك رنسي. سميل: الحروب الصليبية. ترجمة سامي هاشم. ص ٢٣.

(٤) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق. ص ٨٦.

كما تتمثل في (ضعف الدولة الفاطمية وعدم قدرتها على درء خطر الفرنجة عن سواحل الشام ومصر)[1].

هـ ـ أسباب شخصيـة:

وتتلخص هذه الأسباب في رغبة بعض أمراء الأقطاع الذين حرموا من امتلاك المقاطعات والكونتونات التوجه نحو الشرق (للحصول على مقاطعات وامارات لهم فيها تعوضهم عما حرموه في بلادهم وكذلك رغبة الرقيق في التخلص من نظام الاقطاع الذي يربطهم بالأراضي)[2] كما تساعدهم في تحقيق الثراء المادي في البلاد التي تفيض لبنا وعسلا كما تقول بذلك التوراة.

٤ ـ مراحل تطور الصراع الفرنجيّ ـ الاسلامي:

يمكن القول أن الصراع الفرنجيّ ـ الاسلامي قد اتخذ حسب حركة المؤشر التاريخي ثلاث مسارات رئيسية يشكل كل واحد منها مرحلة من مراحل ذلك الصراع وهذه المراحل هي:

أ ـ مرحلة تأسيس مملكة بيت المقدس والامارات الفرنجية التابعة لها:

بدأت هذه المرحلة مع بداية الحملة الأولى على بلاد الشام وفلسطين عام ١٠٩٧ واستمرت حتى ميلاد الدولة الزنكية عام ١١٢٨ على يد الشيخ (عماد الدين زنكي) مع الأخذ بعين الاعتبار أن ملامح انتهائها قد ظهرت قبل ذلك ببضع سنوات وأن آثارها قد امتدت بعد ذلك لبضع سنوات أخرى أيضا.

فلو تتبعنا شريط الاحداث التاريخية الهامة خلال هذه الفترة لوجدنا أن معركة (أَغَرْسانْغونيس) عام (١١١٩) ميلادية قد انتهت بانتصار الأمير السلجوقي (غازي الثاني) على الأمير (روجر) حاكم امارة انطاكيا.

وعلى الرغم من أن الامير السلجوقي استطاع في هذه المعركة أن يبيد الجيش الفرنجي عن بكرة أبيه الا أنه لم يستثمر فوزه ولم يواصل تقدمه لانتزاع امارة انطاكيا من أيدي المغتصبين لها بعد أن تمكن من تدمير جيشها وقتل أميرها وبعد أن أصبحت طريقه اليها ممهدة وأمينة.

ان روح المبادرة والابداع الذاتي لدى القادة السلاجقة لم تكن قد ظهرت بعد بسبب عدم وضوح الرؤيا لديهم سيما وأن الدولة السلجوقية لم تكن قد رسمت سياستها وحددت أهدافها.

لقد تحرك الأمير السلجوقي (غازي الثاني) من امارته في (ماردين) لنجدة مدينة حلب بعد أن استغاث به أميرها خشية اقتحامها من قبل الفرنجة ثم عاد أدراجه الى

---

(١) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام. المجلد الرابع، ص ٢٤٤.
(٢) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة.
(٣) غوستاف لوبون: حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر، ص ٣٩٧.

(ماردين) بعد زوال الخطر عن مدينة حلب.

ولذلك فلا يمكننا اعتبار معركة (أغرسانغونيس) بداية مرحلة جديدة ولكنها مع ذلك تشكل علامة بارزة تدل على قرب نهاية المرحلة الاولى.

أما المزايا العامة لهذه المرحلة فانها مختلفة بين المعسكرين ويمكن اجمالها كما يلي:

١ - **المعسكر الاسلامي**: يمكن أن نطلق اصطلاح المعسكر الاسلامي جزافا على هذه المرحلة فلم يكن هناك وجود فعلي لهذا المعسكر كما هو عليه الحال في معسكر الفرنجة، حيث كانت هناك اقطاعيات ممنوحة لبعض أمراء السلاجقة مثل: (اقطاعية حلب، دمشق، الجزيرة، ديار بكر، الموصل، وانطاكيا قبل احتلالها) أما طرابلس فقد كانت قبل الاحتلال تحت حكم (بني عمار) من الشيعة كما كانت القدس تحت حكم (الأراتقة).

وكانت هذه الولايات تمنح لبعض الامراء من السلاجقة جريا على نظام الاقطاع، وكان حاكم كل ولاية أو اقطاع يرتبط مع السلطان ارتباطا مباشرا ولا تربطه بحاكم أية ولاية أخرى علاقة رسمية، وإذا حدث تكليف من قبل السلطان لأحد الأمراء بأداء واجب معين ثم طلب السلطان من بعض حكام الامارات الأخرى الارتباط به لفترة زمنية محددة وذلك من أجل مساعدته في تنفيذ واجبه فإن هؤلاء الأمراء كانوا يعتبرون ذلك انتقاصا من سيادتهم أو فرضا لاخضاعهم وقد حدث مثل هذا عندما أمر السلطان (محمد بن ملكشاه) بتنظيم حملة بقيادة (مودود بن الطنطش) للقيام بالهجوم على الدولة اللاتينية في منطقة (تل باشر) التابع لامارة الرها عام (١١١١) ميلادية[١] حيث أمر البعض من حكام الولايات السلجوقية الانضمام إلى (مودود) بفرقهم العسكرية فرفض (رضوان) أمير حلب السماح لبعض الامراء الذين كان يخشاهم دخول مدينته ثم تفرق الجيش الاسلامي ولم ينفذ مهمته بسبب الخلاف بين أمرائه.

ويمكن اجمال المزايا العامة لهذه المرحلة في المعسكر الاسلامي بما يلي:

(أ) الافتقار إلى القيادة السياسية الموحدة في الدولة السلجوقية بعد وفاة السلطان (ملكشاه) بسبب النزاع على عرش السلطنة بين أبنائه وما نتج عن ذلك من غياب الرؤيا الاستراتيجية للدولة وعدم وجود الأهداف المحددة وعدم وجود سلطان قادر على اتخاذ القرار.

(ب) ان ادارة الامارات بأسلوب نظام الاقطاع وارتباط هؤلاء الأمراء بالسلطان مباشرة قد عطل امكانية التنسيق فيما بينهم فلم يسعوا لمساندة بعضهم بعضا أثناء فترة اجتياح الفرنجة لاماراتهم.

(١) ر. سي. سميل: الحروب الصليبية. ترجمة سامي هاشم، ص ١٤٧.

(ج) شيوع أسلوب الدفاع السلبي المحلي داخل أسوار المدن والاختباء خلف أسوار القلاع المحاصرة ريثما يتم الاستنجاد بحاكم امارة أخرى مجاورة وعدم وجود قوة عسكرية ميدانية يستطيع السلطان أن يدفع بها باتجاه القوات المعادية ولذلك فقد كان حكام الامارات يستنجدون ببعضهم دون تنسيق مسبق بينهم ودون علم السلطان السلجوقي وبمعنى آخر كان الدفاع عن الامارات محليا ومتروكا لاجتهادات الامراء مع وجود التنافس والعداء الشخصي فيما بينهم.

(د) عدم توفر جيش ميداني على مستوى الدولة السلجوقية خلال هذه المرحلة وعدم ممارسة قيادة ميدانية من قبل السلطان كما كانت عليه الحال في معركة (ملاذكرد) عام (١٠٧١) ميلادية.

(هـ) انتشار فكرة الباطنية في المناطق الشمالية من العراق وسوريا وقيامهم بحركة اغتيالات شملت كبار رجالات الدولة السلجوقية.

وكانت جماعة (الحشاشين) الباطنية قد تأسست على يد شخص يدعى (حسن الصباح) في مرتفعات (مازندران)[١] وكان (حسن الصباح) زميلا (لنظام الملك) في الدراسة فلما خاب مطمحه في أن يلعب دورا مهما في الدولة السلجوقية فقد آل على نفسه أن يدمر دعائم هذه الدولة بالغدر والاغتيال فالتحق بالخليفة الفاطمي في مصر ففوض اليه الدعوة الى مبادىء الاسماعيلية فأخذ يجند له عملاء ينفذون مخططاته في الاغتيال وسماهم الفدائيين وكان هو يعرف باسم (شيخ الجبل) وجماعته يطلق عليهم اسم (الملاحدة) وقد استطاع شيخ الجبل أن يستولي في عام (٤٨٣) هجرية الموافق (١٠٨٩) ميلادية على قلعة (آلموت) المنيعة في جبال (مازندران) والتي كانت تعرف باسم (عش النسر)[٢]

واستطاع الحشاشون اغتيال (نظام الملك) وزير السلطان (ملكشاه) عام (١٠٩١) ميلادية كما تمكنوا من اغتيال الخليفة العباسي (المسترشد) عام (١١٣٥) ميلادية في معسكر السلطان (محمود)[٣] كما تمكن بعض أفراد هذه المجموعة من اغتيال السلطان (عماد الدين زنكي) مؤسس الدولة الزنكية عام (١١٤٦) ميلادية وحاولوا اغتيال السلطان (صلاح الدين الأيوبي) أكثر من مرة ولكنهم فشلوا بسبب يقظة حرسه وجنوده.

(و) انقسام المسلمين في المشرق الاسلامي بين خلافتين دينيتين متناحرتين تسعى كل واحدة منها لتدمير الاخرى وقد تمت ممارسة هذا السعي

(١) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب. ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين. بيروت، ص ٢٧٨

(٢) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ص ٢٧٩.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ٢٩٥.

بأسلوب غير مشروع مثل حركة الاغتيالات التي نفذها الحشاشون بتأييد ومباركة الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر.

وكذلك محاولة الخلافة الفاطمية التقرب من أمراء الفرنجة فور دخولهم انطاكيا حيث (تم ايفاد سفارة مصرية عام (١٠٩٧) ميلادية الى أمراء الفرنجة في انطاكيا تقترح عليهم التعاون لاقتسام بلاد الشام وفلسطين بينهما بحيث تتبع بلاد الشام للفرنجة مقابل سيطرة المصريين على فلسطين)[١].

٢ - **معسكر الفرنجة**: بدأت فكرة غزو بلاد المشرق الاسلامي من الكنيسة الغربية عندما دعا البابا (أوربان الثاني) أوروبا في مؤتمر (كليرمنت) عام (١٠٩٥) ميلادية[٢] لانقاذ القبر المقدس وتجنيد الجيوش لاحتلال بلاد الشام وفلسطين وآسيا الصغرى حيث أخذ الفرنجة يتدفقون الى بلاد الشام بموجات بشرية هائلة من خلال الامبراطورية البيزنطية وقد أخذوا جميعا على عاتقهم مهمة انقاذ القبر المقدس وانتزاع بيت المقدس من أيدي سكانها المسلمين ومع احتلال بيت المقدس سيتم احتلال سوريا وآسيا الصغرى لكي تبقى الطريق مفتوحة من أوروبا إلى بيت المقدس من خلال الامبراطورية البيزنطية.

ان أهداف الفرنجة واضحة ومحددة لهم من قبل البابا ولا يستطيع أحد في أوروبا أن يخرج على رغبته لانه حينئذ سيكون زنديقا ملحدا خارجا من دائرة الغفران ويمكن اجمال المزايا العامة للمعسكر الفرنجي بما يلي:

(أ) تلاقي أهداف الكنيستين الشرقية والغربية ضمن اطار المصلحة المشتركة حيث طلب الامبراطور البيزنطي زعيم الكنيسة الشرقية من البابا (أوربان الثاني) زعيم الكنيسة الغربية النجدة لحماية الدين المسيحي في بلاد الشرق.

(ب) التعاون والتنسيق التام بين الامبراطور البيزنطي وأمراء الجيوش القادمة من أوروبا ومحاولة ضبطها والاشراف على تنظيمها واعدادها.

(ج) اتخاذ أراضي الامبراطورية البيزنطية بمثابة قاعدة اسناد أمامية متقدمة لها نحو بلاد الشام وذلك في مقابل اعادة الاجزاء التي انتزعها السلاجقة المسلمون من أطراف الامبراطورية البيزنطية.

(د) وضوح الاهداف المرحلية لأمراء الفرنجة في آسيا الصغرى وسوريا والعمل على تحقيق الهدف الاستراتيجي الحاسم في فلسطين.

---

(١) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص ١٣٣.

(٢) بسام العسلي: الايام الحاسمة في الحروب الصليبية. دار النفائس، ص ٧٠.

(هـ) استغلال النزاع بين الخلافتين الفاطمية والعباسية واقامة علاقات ودية مع الفاطميين في مصر.

(و) استغلال فرقة الاسماعيلية الباطنية وتشجيعها على حركات الاغتيال لاشاعة الفوضى والبلبلة بين السكان.

(ز) فصل شطري العالم الاسلامي عن بعضهما وعدم السماح باقامة اي نوع من الاتصال الجغرافي بينهما بعد اطمئنانهم الى ترسيخ الانقسام الروحي وقد تحقق لهم ذلك باقامة جدار فاصل من الامارات الأوروبية بين مصر وبلاد الشام مثل: (امارة الرها وانطاكيا وطرابلس والكرك ومملكة بيت المقدس).

(ح) نجح أمراء الافرنج خلال المرحلة الاولى في المحافظة على زمام المبادرة وإدامة روح التعرض ومحاولة احتلال المزيد من الأراضي التي تحقق لهم الوجود الدائم وتسمح لهم بالتوسع على حساب الامارات السلجوقية المفككة.

(ط) حافظ هؤلاء الأمراء على مبدأ وحدة القيادة وكانوا يسارعون الى الانضواء تحت قيادة ملك بيت المقدس كلما شعر احدهم بالخطر او استدعى الموقف ذلك.

(ي) نشط أمراء الفرنج خلال هذه المرحلة بانشاء القلاع المحصنة داخل المدن لتحقيق مبدأ الدفاع المحلي اضافة الى الجيش الميداني الذي كان تحت سيطرة ملك بيت المقدس.

(ك) بنى الفرنجة خطا دفاعيا من القلاع الامامية الممتدة من انطاكيا شمالاً عبر لبنان وحمص ودمشق وعجلون والسلط والكرك والشوبك اضافة الى خط آخر من القلاع الموازية لها في فلسطين وكان هناك رؤيا متبادلة بين القلاع الامامية والخلفية.

(ل) تبنى الافرنج مبدأ الحشد السريع تحت قيادة ملك بيت المقدس كلما تعرضت احدى اماراتهم للخطر او استدعت الضرورة ذلك.

ب - المرحلة الثانية، قيام الدولة الزنكية:

يمكن القول ان هذه المرحلة قد بدأت مع ميلاد الدولة الزنكية عام (١١٢٨) ميلادية وانها قد انتهت مع نهايتها عام (١١٧٤) ميلادية. كما يمكننا وصف الصراع بين المعسكرين الاسلامي والافرنجي بأنه كان خلال هذه المرحلة صراعا متكافئا.

١ - **المعسكر الاسلامي**: كان المعسكر الاسلامي خلال هذه المرحلة هو معسكر الدولة الزنكية التي أرسى قواعدها الشيخ (عماد الدين زنكي)، ففي عام ١١٢٨ عهد السلطان السلجوقي محمود بن ملكشاه الى عماد الدين زنكي بولاية الموصل وكان

(أسد الدين شيركوه) استطاع من خلاله أن يهاجم امارة انطاكيا شمالا ويوسع حدود دولته على حسابها.

(ح) لم يكتف نور الدين بتوسيع دولته على حساب الامارات الافرنجية في بلاد الشام بل أخذ يتطلع الى مصر سيما وأن الصراع فيها على السلطة كان محتدما بين الوزيرين (شاور، وضرغام) وانهما كانا يتسابقان نحو معسكر الفرنجة لكسب الدعم في الوصول الى السلطة بينما كان الخليفة الفاطمي لا يملك من أمر السلطة شيئا خارج حدود قصره.

(ط) استغل نور الدين التدخل الافرنجي في الشؤون الداخلية المصرية فأرسل حملاته الثلاثة الى مصر الواحدة تلو الاخرى وذلك لمنع الفرنجة من السيطرة على الشؤون المصرية من جهة وللوصول الى هدفه المنشود في تحقيق الوحدتين الدينية والسياسية بين بلاد الشام ومصر من جهة أخرى.

(ي) استطاع نور الدين بواسطة قائد جيشه إلى مصر (أسد الدين شيركوه) أن يصل الى السيطرة على الوزارة المصرية حيث أصبح (أسد الدين) ومن بعده ابن أخيه (صلاح الدين) وزيرا للخليفة الفاطمي (العاضد) كما استطاع صلاح الدين أن ينهي الخلافة الفاطمية في مصر عام (١١٧٠) وأن يوحد الخلافة الاسلامية بدعوته للخليفة العباسي على المنابر المصرية.

٢ ـ **معسكر الافرنج**: بدأت هذه المرحلة مع وفاة كبار قادة الجيل الاول من المحاربين الافرنج أمثال (بلدوين الثاني) ملك بيت المقدس و (جوسلين) أمير الرها وتوارث خلال هذه المرحلة عرش بيت المقدس ثلاثة ملوك أقوياء هم[١] (فولك الخامس ١١٣١ ـ ١١٤٣)، (بلدوين الثالث ١١٤٣ ـ ١١٦٢)، (املريك ١١٦٢ ـ ١١٧٤) وقد تميز المعسكر الافرنجي خلال هذه المرحلة بما يلي:

(أ) إقامة حلف بين (فولك) ملك بيت المقدس و (معين الدين أنر) صاحب (بعلبك وبعرين) ضد عماد الدين زنكي وذلك بقصد التصدي لاطماعه في احتلال دمشق[٢].

(ب) سقوط (امارة الرها) بيد الشيخ عماد الدين عام (١١٤٤) ميلادية بعد وفاة (فولك) ملك بيت المقدس بسنتين وقد عجزت أرملته الوصية على عرش المملكة عن تقديم المساعدة لهذه الامارة خلال محاصرة عماد الدين لها.

(ج) استنجاد (ماليزاند) الوصية على عرش مملكة بيت المقدس بالبابا (أوجين الثالث) لتجريد حملة أخرى تتمكن من استعادة امارة الرها وتأديب الزنكيين الذين أخذت دولتهم تتعاظم على الحدود الشرقية الشمالية لمملكة

---

(١) سعيد أحمد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص ٢٥٩ ـ ٣٢٢.
(٢) ابن الأثير: الكامل. الجزء الحادي عشر، ص ٣٤.

الشيخ عماد الدين قد لفت اليه الانظار لما ابداه في المعارك التي خاضها ضد الافرنج من شجاعة الى جانب: (الامير جكرمش، ثم جاولي سقاوة وأخيرا مع آقسنقر البرسقي)[1] وقد تميزت هذه المرحلة بما يلي:

(أ) سعى الشيخ عماد الدين الى توسيع امارته فضم اليها حلب وحمص وديار بكر والجزيرة وكان يطمح لضم مدينة دمشق الى مملكته وقد تزوج من (زمرد خاتون) أرملة (بوري بن طغتكين) حاكم دمشق لهذه الغاية ولكن المنية عاجلته قبل تحقيق ذلك.

(ب) وضع الشيخ عماد الدين مقاومة الافرنج وطردهم من البلاد الاسلامية نصب عينيه وكان يدرك أنه لا يستطيع تحقيق هذا الهدف الا بعد أن يتمكن من توحيد الجهد الاسلامي المشتت ضمن ولايات لا تقوى على الدفاع عن نفسها فضلا عن عجزها عن التصدي للخطر الجاثم فوق ربوعها.

(ج) أوجد الشيخ عماد الدين فكرة الهدف الاستراتيجي ثم أخذ يسير على طريق تحقيقه وكان توحيد الجهد الاسلامي المبعثر هو الخطوة الاولى والرائدة على هذا الطريق.

(د) أما خطوته العظيمة على طريق تحقيق الهدف الذي كان يصبو اليه فقد كانت متمثلة في احتلال امارة الرها عام (١١٤٤) ميلادية مستغلا فرصة غياب أميرها وانصرافه الى مجونه ولهوه في مدينة (تل باشر) فانعطف اليها بعد أن كان متوجها الى (ديار بكر) مستغلا خلاف أميرها (جوسلين الثاني) مع أمير انطاكيا (ريموند دي بواتير) من جهة وعدم قدرة (ماليزاند) - الوصية على عرش ابنها بلدوني الثالث - بالتدخل لتقديم المساعدة المطلوبة في الوقت المناسب من جهة أخرى.

(هـ) نجح عماد الدين زنكي في ترسيخ قواعد الدولة الزنكية فوسع حدودها واستعاد امارة (الرها)، واذا كانت المنية قد عاجلته عام (١١٤٦) قبل تحقيق هدفه الكبير فلقد ترك لولده (نور الدين) المهمة من بعده بعد أن أصبحت الرؤيا واضحة أمامه.

(و) لقد سار (نور الدين) على طريق والده فوسع دولته وضم اليها دمشق وبذلك أصبحت الدولة الزنكية تضم (الموصل، حلب، الجزيرة، ديار بكر، حمص، حماة، ودمشق) فأصبح الافرنج يخشون هذه الدولة الفتية الناشئة ويحسبون لها ألف حساب.

(ز) سعى نور الدين الى تنشيط دفاعه في بلاد الشام فأنشأ جيشا ميدانيا بقيادة

---

(١) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص ٢٥٤.

بيت المقدس وقد لبى البابا نداء (ماليزاند) ونجح في تجريد الحملة الثانية بقيادة (كونراد الثالث) امبراطور المانيا و (لويس السابع) ملك فرنسا ووصلت هذه الحملة الى بيت المقدس حيث توجهت منها الى دمشق فوصلتها عام (١١٤٨) ميلادية وكان يحكمها (معين الدين أنر) حليفهم المخلص والوحيد في المنطقة.

(د) أدرك حاكم دمشق (معين الدين أنر) الخطر الكبير الذي ينتظر هذه المدينة بعد اقتراب القوات الافرنجية منها ولم يكن يتوقع أن الامور ستصل الى هذه الدرجة فأرسل الى نور الدين زنكي يستنجد به فجاءته الجيوش الزنكية من الموصل وحلب وجميع انحاء الدولة فوصلت الى دمشق وعندما أدرك الفرنجة أنهم لا يستطيعون احتلال دمشق عادوا يجرون أذيال الخيبة والفشل.

(هـ) ساءت العلاقات بين الامبراطور البيزنطي (مانويل كومنين) وبين ملك بيت المقدس (بلدوين الثالث) بسبب أطماع الامبراطور في ضم امارة انطاكيا اليه بعد مقتل أميرها (ريموند) في معركة (معرثة) عام ١١٤٩) ميلادية بيد (أسد الدين شيركوه) قائد قوات (نور الدين) كما قتل معه في هذه المعركة (علي أبو الوفا) زعيم فرقة الاسماعيلية الذي كان يرافقه[1]

(و) استطاع الافرنج خلال هذه المرحلة احتلال مدينة (عسقلان) في جنوب فلسطين عام ١١٥٣ وهذا الاتجاه في التوسع نحو الجنوب يدل على مدى الاهتمام من قبل القائمين على عرش مملكة بيت المقدس (بمصر).

ان هذا التوجه الاستراتيجي يحقق للافرنج فوائد كبيرة منها الوصول الى خيرات مصر وهذا ينعش مملكتهم من الناحية الاقتصادية سيما وأن اقتصاد مملكة بيت المقدس قد تعرض للاختلال بسبب فقدانها الكثير من أجزائها لصالح الدولة الزنكية.

أما من الناحية العسكرية فان هذا التوجه نحو مصر يمنع أي تعاون محتمل بين الجبهتين الغربية والشرقية وهذا يساعد في ترسيخ قواعد مملكتهم ويمد في عمرها مما أغرى الافرنج وشجعهم على هذا التوجه تلك الصراعات التي كانت مستعرة حول منصب الوزارة الفاطمية ومحاولة الوزراء المتصارعين التقرب من أمراء الافرنج لدعمهم وتأييدهم.

(ز) سعي الامبراطور البيزنطي (مانويل كومنين) لاقامة علاقة صداقة مع (نور الدين زنكي) عام (١١٥٩)[2] لرغبته في ضم امارة انطاكيا اليه فلقد التقت أهدافهما في اضعاف مملكة بيت المقدس وانتهاش أطرافها.

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة. الجزء الخامس. ص ٢٨٢.

(٢) قدري القلعجي: كتاب صلاح الدين الايوبي، ص ١٣٦.

(ح) ضعفت امارة أنطاكيا وخاصة بعد أن تمكن (نور الدين) من احتلال مدينة (حارم) عام (١١٦٤) ميلادية وأصبحت هذه الامارة بعد ذلك خارجة من الناحية العسكرية عن التدخل في الصراع بل أصبحت تتجاذبها أطماع الامبراطور البيزنطي ونور الدين زنكي.

(ط) لقد فشلت جميع المساعي التي بذلها ملوك بيت المقدس لاحتلال مصر بل على العكس من ذلك فقد نجح نور الدين زنكي في الوصول الى مصر بواسطة قائد جيشه (أسد الدين شيركوه) وصلاح الدين من بعده عام (١١٦٩) ميلادية كما تمكن صلاح الدين من ازالة الخلافة الفاطمية وتوحيد القيادة الروحية في العالم الاسلامي.

ج ـ المرحلة الثالثة، ظهور صلاح الدين الايوبي:

يمكن القول ان هذه المرحلة قد بدأت مع ارتقاء صلاح الدين منصب الوزارة الفاطمية في مصر عام ١١٦٩ ميلادية حيث أن وصول صلاح الدين الى هذا المنصب الكبير كان يشكل منعطفاً حادا في مسار الصراع الافرنجي ـ الاسلامي أما ذروة هذه المرحلة فقد تمثلت في حطين عام (١١٨٧) ميلادية عندما سجل صلاح الدين انتصاره الكبير على الجيوش المعادية بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ هذا الصراع الذي دام (تسعين عاما) من عام (١٠٩٧ ـ ١١٨٧).

١ ـ المعسكر الاسلامي:

بدأت ملامح هذه المرحلة في الظهور مع ارتقاء البطل صلاح الدين الأيوبي منصب الوزارة الفاطمية في مصر.

والحقيقة أن القدر قد انعطف انعطافا حادا لمصلحة صلاح الدين بدءاً بوراثته منصب الوزارة الفاطمية من عمه أسد الدين شيركوه ولما يمضي على تقلده اياها أكثر من شهرين واستمرارا بموت العاضد وزوال الخلافة الفاطمية دونما حاجة الى اراقة دماء وانتهاء بموت سيده الاعلى نور الدين عام ١١٧٤ في وقت كانت الشكوك تعصف بعقله لاحتلال مصر وعزل صلاح الدين وكذلك وفاة ملك بيت المقدس (أملريك) الذي ما انفك يعمل جاهدا لغزو مصر وتأليب أوروبا والامبراطورية البيزنطية لفتحها والاستئثار بخبراتها.

ولكن القدر عندما وقف الى جانب صلاح الدين وهو يمارس دوره في قيادة الأمة الاسلامية لتحرير بيت المقدس كان قد هيأه مسبقا لممارسة هذا الدور العظيم فلقد ولد البطل عام ١١٣٧[١] في مدينة تكريت في العراق حيث كان أبوه حاكما على المدينة، وشهد الفرحة العظيمة بتحرير امارة الرها على يدي الشيخ عماد الدين زنكي حيث كان والده حاكما لمدينة بعلبك ضمن الدولة الزنكية، وفي عام ١١٥٤ شهد مفاوضات تسليم مدينة

(١) قدري القلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص ١٥١.

خارطة الامارات الفرنجية



خارطة المرحلة الثانية / الصراع الصليبي الأسلامي

قيام الدولة الزنكيـة



دمشق حيث جرت هذه المفاوضات بين والده نجم الدين والذي كان قد عين حاكما لمدينة دمشق من قبل أحد أحفاد (طغتكين) وبين عمه أسد الدين شيركوه قائد جيش نور الدين زنكي الذي كان يحاصر المدينة.

أما خلال الفترة من عام (١١٥٤ ـ ١١٦٤) فقد عاشها صلاح الدين مع أسرته في بلاط آل زنكي حيث أقر نور الدين والده حاكما على مدينة دمشق ثم شارك صلاح الدين عمه أسد الدين شيركوه في حملاته العسكرية الى مصر خلال الفترة من ١١٦٤ ـ ١١٦٨ وأبدى خلالها مقدرة عسكرية وشجاعة نادرة.

ولقد كان لحياته في بلاط الدولة الزنكية واشتراكه مع عمه أسد الدين شيركوه في حملاته العسكرية الى مصر أثر كبير في النجاح الذي حققه خلال ممارساته لدوره القيادي فيما بعد، وقد تميزت هذه المرحلة بالمزايا التالية:

(أ) السعي المتواصل والحثيث من قبل صلاح الدين لاعادة توحيد جبهات القتال في مصر والشام والعراق تحت قيادته بعد وفاة نور الدين زنكي وقد استطاع خلال الفترة بين عامي ١١٧٤ ـ ١١٧٦ من ضم دمشق وحمص وحماة وبعلبك إليه أما ولايات حلب والموصل والجزيرة وديار بكر فقد امتنع أمراؤها الزنكيون عن ضمها اليه واعتبروه متنكرا لفضل أسياده عليه وخارجا على طاعتهم.

(ب) التعرض ضد مملكة بيت المقدس والامارات التابعة لها وقد شملت استراتيجية التعرضية في هذا المجال الاهداف التالية:

(أأ) تأمين الطريق الواصل بين بلاد الشام ومصر والذي يمر ضمن امارة الكرك سيما وأن أمير هذه المنطقة (رينو دي شاتيون) كان يشكل مصدرا للازعاج بالنسبة للحجاج المسلمين الذاهبين من بلاد الشام ومصر الى مكة والمدينة اضافة الى اعتراضه للقوافل التجارية بين مصر والشام واستيلائه عليها ضاربا بالعهود والاتفاقيات عرض الحائط.

(ب ب) مهاجمة المدن والقلاع المحصنة لاختبار مناعتها وارهاب السكان بداخلها واجبار ملك بيت المقدس على التصرف وتحريك جيش ميداني لنصرتها.

(ج ج) الاشتباك مع قوات الميدان الفرنجية في معارك غير حاسمة بقصد التعرف على أساليبها القتالية ومعرفة جوانب القوة والضعف فيها.

(د د) القيام بغارات ازعاجية وتخريبية للمحاصيل الزراعية بقصد اضعاف المعنويات من جهة وتدمير اقتصاد مملكة بيت المقدس من الجهة الاخرى.

(ج) لكي يتمكن صلاح الدين من التوفيق بين هدفيه الاستراتيجيين في توحيد جبهات القتال واضعاف القدرة الدفاعية لمملكة بيت المقدس تمهيدا للهجوم الحاسم عليها وتدميرها فقد كان صلاح الدين مضطرا الى تنظيم برنامج زمني لاعماله القتالية ضد أعدائه الافرنج وخصومه الزنكيين حيث كان في فترة معينة يهاجم مملكة بيت

المقدس ثم يعقد معها هدنة لمدة سنة أو سنتين يتوجه خلالهما لمناجزة خصومه الزنكيين ثم يعقد معهم صلحا يعود بعده للتعرض ضد مملكة بيت المقدس وهكذا طيلة المرحلة الثالثة من عام ١١٧٤ ـ ١١٨٧ هذه الفترة التي تمكن خلالها من اعادة توحيد بلاد الشام والعراق ومصر في جبهة واحدة ورتب خلالها الاوضاع لخوض المعركة الفاصلة في حطين.

(د) لقد تمكن صلاح الدين بذكائه السياسي من العزف على قيثارة الخلافات بين ريموند الثالث أمير طرابلس وغي دي لوزيتان حول عرش مملكة بيت المقدس بعد وفاة بلدوين الخامس عام ١١٨٦ وعندما نجح (غي) في عرش المملكة رفض ريموند تقديم الطاعة والولاء له وأصبحت بذلك امارة طرابلس منفصلة عن مملكة بيت المقدس فاستغل صلاح الدين ذلك وتقرب الى أمير طرابلس وعقد معه حلفا[١] استطاع من خلاله أن يخترق المعسكر الافرنجي في الوقت الذي كان يخطط فيه للمعركة الفاصلة ضدهم.

٢ ـ معسكر الافرنج:

بدأت هذه المرحلة بارتقاء (بلدوين الرابع) الملقب بالأجذم عرش مملكة بيت المقدس عام (١١٧٤ ـ ١١٨٥) وخلال هذه الفترة وحتى عام ١١٨٧ كانت القدرة الدفاعية لمملكة بيت المقدس في تراجع وانحسار مستمر والواقع أن بلدوين الرابع لم يكن هو السبب في هذا التراجع في القدرة الدفاعية فلقد بذل كل ما يستطيع أن يبذله للمحافظة على هذه القدرة كما تمكن في عام ١١٧٧ من استغلال الظروف وتلقين صلاح الدين درسا قاسيا في معركة (مونت جيسارد) قرب مدينة الرملة حيث ان ظروف مملكة بيت المقدس وظروف خصومه لم تكن كلها مواتية للاستغلال وهي إن أقبلت نحوه مرة فقد أدبرت عنه مرات عديدة كما ان تراجع القدرة الدفاعية لمملكة بيت المقدس لم يبدأ في عهد بلدوين الرابع وانما سبقه قبل ذلك بكثير، حيث أخذت تتراجع منذ بداية المرحلة الثانية من مراحل الصراع الافرنجي الاسلامي عندما تمكن الشيخ عماد الدين زنكي من انتزاع امارة الرها عام (١١٤٤) وقد استمر هذا التراجع مع تآكل، الامارات الافرنجية وانحسارها ففي عام ١١٦٤ تمكن نور الدين زنكي من احتلال مدينة حارم وتجريد امارة انطاكيا من قدرتها الدفاعية نهائيا، ولم يبق من امارات الفرنجة بشكل فعلي مع مملكة بيت المقدس سوى امارة طرابلس ومقاطعة الكرك.

ومع انحسار هذه الامارات في الشمال حاول (أملريك) أن يتوسع في الجنوب وكانت استراتيجيته متجهة لاحتلال مصر والاستيلاء على خيراتها ولكن القدرة الدفاعية الاسلامية كانت في تصاعد مستمر وقد فوت ذلك على الفرنجة الفرصة في تحقيق اطماعهم مما اضطر (املريك) الى عقد تحالف مع الامبراطور البيزنطي (مانويل كومنين عام

(١) سعيد احمد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص ٣٨٣.

١١٧١)[1] وضع فيه مملكة بيت المقدس تحت السيادة البيزنطية مقابل مساعدته في احتلال مصر وقد توفي (املريك) عام ١١٧٤ ولم يحقق هذا التحالف اي شيء يذكر.

وبينما كان مسار القدرة العسكرية الاسلامية يأخذ اتجاهه الصاعد فان عكسه تماماً كان يحدث في معسكرات الافرنج فما ان توفي بلدوين الرابع عام ١١٨٥ حتى اخذت مملكة بيت المقدس تلفظ انفاسها الاخيرة حيث ورث العرش ابن اخته بلدوين الخامس الذي لم يتجاوز عمره ستة اعوام وبقي تحت وصاية ريموند الثالث أمير طرابلس وبعد سنة واحدة فقط توفي بلدوين الخامس عام (١١٨٦) ميلادية ثم حصل نزاع على عرش المملكة بين (ريموند الثالث) أمير طرابلس من جهة وبين والدة (بلدوين الخامس وزوجها) (غي دي لوزيتان) من جهة اخرى وانقسمت مملكة بيت المقدس الى فئتين احداهما تؤيد امير طرابلس والاخرى تؤيد الملكة وزوجها وقد نجح أخيرا حزب الملكة ولكن ريموند استقل بامارته وخرج على التبعية لعرش المملكة وبخروج امارة طرابلس فقدت مملكة بيت المقدس جزءا كبيرا وهاما من قدرتها الدفاعية وأصبحت وحيدة في الميدان بعد أن انحاز امير طرابلس الى جانب صلاح الدين موقعاً معه على علاقة صداقة وتعاون نكاية بملك بيت المقدس[2].

ويمكن اجمال المزايا العامة لهذه المرحلة في معسكر الافرنج على النحو التالي:

(أ) انحسار تدريجي في القدرة الدفاعيـة بسبب فقدان بعض الامـارات في مرحلة سابقة كامارة الرها عام ١١٤٤ وتجريد امارة انطاكيا من قدرتها العسكرية بعد احتلال حارم عام ١١٦٤.

(ب) انكفاء وتقوقع نحو الداخل بعد فشل تحركات الفرنجة نحو مصر خلال الفترة من عام (١١٦٤ ـ ١١٦٨).

(ج) عدم جدوى التحالف الافرنجي ـ البيزنطي في احتلال مصر عام ١١٧١ لانه قد جاء في مرحلة متأخرة بعد وحدة شطري العالم الاسلامي من الناحيتين الجغرافية والروحية.

(د) ضعف الملوك الذين توارثوا عرش بيت المقدس خلال هذه المرحلة فبلدوين الرابع كان قاصرا لا يتجاوز عمره ثلاثة عشر عاما وكان مصابا بمرض الجذام وكذلك بلدوين الخامس الذي كان عمره لا يتجاوز ستة أعوام وأما (غي دي لوزينان) فلم ينعقد الاجماع على أهليته للعرش.

(هـ) الاختلاف في الرأي حول عرش المملكة وما نتج عنه من خروج ريموند الثالث على طاعة الملك في أحلك الظروف التي واجهتها مملكة بيت المقدس.

---

(١) سعيد أحمد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق (٣٤٥).

(٢) الكامل لابن الأثير (ج ١١ ص ٣٤٨)؛ وكتاب الروضتين (ج ٣ ص ٧٤).

(و) ظهور المتطرفين الدينيين والمتهورين في هذه المرحلة التي فقدت فيها مملكة بيت المقدس قدرتها الدفاعية وفقد فيها ورثة العرش القدرة على اتخاذ القرار مما فتح المجال لمثل هؤلاء المتطرفـين الانفراد بتصـرفاتهم الطائشـة والتأثـير على الملك والتدخل لتغيير قراره فكان لتصرفاتهم وأفكارهم الاثر الكبير في التعجيل بنهاية المملكة أو جرها الى الهاوية.

الفصل الثاني

٥ ـ الرؤيا الاستراتيجية العامـة:

أ ـ الجـانب الاسلامـي:

اقتضت طبيعة الظروف التي واجهت (صلاح الدين) بعد وفاة (نور الدين زنكي) أن يقاتل على جبهتين في آن واحد احداهما الجبهة الشرقية في بلاد الشام والعراق وذلك لاعادة توحيد الموقف الاسلامي بعد أن رفض أبناء (نور الدين) انضواءهم تحت راية (صلاح الدين) واعتبروه مغتصبا للسلطة الشرعية التي تمثلها الدولة الزنكيـة وأنه جاحد لنعمة أسياده آل زنكي وناكر لجميلهم عليه، وقد استمر العمل على هذه الجبهة منذ وفاة (نور الدين زنكي) عام (١١٧٤) ميلادية حتى عام (١١٨٦) قبل معركة حطين بسنة واحدة، أما الجبهة الثانية التي عمل عليها صلاح الدين خلال هذه المرحلة فهي مملكة بيت المقدس والامارات التابعة لها.

ان استراتيجية العمل التي مارسها (صلاح الدين) على هذه الجبهـة تضمنت مناجزة الافرنج في مـدنهم وقلاعهم الحصينـة بغية ازعـاجهم وزعزعتهم واضعـاف معنوياتها وارباك أمرائهم كما كانت تتضمن الاشتباك مع قواتهم الميدانية لارهـاقها والتعرف على أساليب قتالها ومواطن ضعفها وقوتها كما تضمنت استراتيجيته في هذا المجال أساليب الهجمات التخريبية ضد المحاصيل الزراعية وحرقها أو اتلافها بقصد تدمير اقتصاد مملكة بيت المقدس وتعطيل وسائل انتاجها، ان سياسة الارض المحروقة وتعطيل عجلة الانتاج الاقتصادية وتحطيم المعنويات وتكريس عوامـل الفرقـة واذكاء الخصومات الداخلية بين صفوف الاعداء كل ذلك يدخل ضمن اطار استراتيجية الهجوم غير المباشر التي انتهجها (صلاح الدين) لتدمير بنيتها قبل شروعه بالهجوم المباشر عليها في المعركة الميدانية الفاصلة.

وبعد أن تمكن صلاح الدين من اعادة توحيد الجبهتين الشرقية والغربية تحت قيادته فقد أخذ يستعد لخوض المعركة الفاصلة ويستغل لها الظروف ويتحين من أجلها الفرص، ففي عام (١١٨٥) ميلادية كان قد عقد اتفاقية هدنة لمدة (أربع سنوات) مع (ريموند الثالث) أمير طرابلس والذي كان وصيا على عرش مملكة بيت المقدس حيث كان (بلدوين الخامس) الوريث الشرعي للمملكة لا يتجاوز عمره (ستة أعوام)، ولم تمض (سنة واحدة) على وصاية (ريموند) حتى توفي (بلدوين الخامس) عام (١١٨٦) ميلادية وتولى عرش المملكة (غي دي لوزينان) بعد خلاف حاد انقسمت فيه مملكة بيت المقدس بين مؤيد ومعارض فأذعن لحكمه من أذعن من الامراء وكان أكبر الخارجين على طاعته (ريموند الثالث) أمير طرابلس حيث اعتصم بمدينة طبريا وكتب الى (صـلاح الدين) يخطب مودته ومساعدته فاستغل (صلاح الدين) هذا الخلاف الذي كان له أكبر الاثر في المعركة الفاصلة. لقد التزم (صلاح الدين) بالهدنة الموقعة مع مملكة بيت المقدس رغم الانشقاق الذي حصل على تولي السلطة بين (ريموند الثالث) ـ الذي وقع اتفاقية الهدنة

باعتباره وصيا شرعيا على عرش المملكة ـ وبين (غي دي لوزينان) الذي أصبح بعد وفاة (بلدوين الخامس) ملكا وكان باستطاعته أن يتنكر لاتفاقية الهدنة التي وقعها (ريموند الثالث) مع صلاح الدين.

ان الالتزام بهذه الهدنة لم يدم طويلا حيث انتهكها أمير الكرك (رينو دي شاتيون) عندما اعتدى على قافلة تجارية للمسلمين كانت قادمة من مصر الى بلاد الشام فاستولى عليها وأسر أفرادها[1] وتنكر للهدنة المعقودة ورفض أوامر ملك بيت المقدس مدعيا أنه حر في تصرفه ضمن أراضيه.

وعندما عجز الملك عن اقتناعه بالالتزام بنصوص اتفاقية الهدنة المعقودة مع المسلمين أو عمل أي شيء لاعادة أسرى القافلة فقد أعلن (صلاح الدين) النفير العام في جميع البلاد الاسلامية استعدادا لخوض المعركة الفاصلة بعد أن هيأ لها كل أسباب النجاح.

ب ـ الجانب الافرنجي:

كانت الاستراتيجية العليا التي عملت عليها مملكة بيت المقدس في عهد (أملريك) خلال فترة حكمه (١١٦٤ ـ ١١٧٤) ميلادية متجهة لاحتلال مصر وذلك لانعاش اقتصاد مملكته التي أضعفتها كثرة الحروب مع الدولة الزنكية وتوسع هذه الدولة على حسابها كما كان (املريك) يرى في التوجه إلى مصر فرصة مناسبة في توطيد أركان مملكته من جهة وعدم السماح بتوحيد الجبهتين الشامية والمصرية من جهةٍ أخرى.

ولقد كانت الفرصة مناسبة بسبب الصراع الذي كان محتدما على عرش الوزارة الفاطمية بين الوزيرين (شاور، ضرغام) ولذلك فقد قاد (ثلاث) حملات عسكرية الى مصر خلال الفترة (١١٦٤ ـ ١١٦٨) ولكن هذا التوجه قد باء بالفشل بسبب تزامنه مع توجه (نور الدين زنكي) اليها حيث كان يتسابق مع جيوش الفرنجة لاحتلالها، وتوحيد الجبهتين كمقدمة لتحرير بيت المقدس من أيديهم.

وبعد وفاة (أملريك) تولى عرش مملكة بيت المقدس (بلدوين الرابع) الملقب بالاجذم خلال الفترة (١١٧٤ ـ ١١٨٥) وكان عمره (ثلاثة عشر) عاما وخلال فترة حكمه تقوقعت مملكة بيت المقدس على نفسها وانكفأت نظرتها نحو الداخل وكانت استراتيجيتها لا تتعدى نظرية الدفاع السلبي في الوقت الذي كان فيه (صلاح الدين) يمارس ضدها استراتيجية الهجوم غير المباشر لتدمير اقتصادها وانهاكها تمهيدا لضربة ميدانية ساحقة.

وبعد وفاة بلدوين الرابع أخذت مملكة بيت المقدس تواجه انقساما خطيرا وصراعا حادا بين أمرائها على وراثة العرش بعد أن آل أمره خلال الفترة الاخيرة من حياة المملكة الى ورثة لم يبلغوا سن الرشد وأصبح قرار الملك خاضعا للفئة المتسلطة عليه

(١) المختصر في أخبار البشر، الجزء الخامس، ص ٩٥؛ وكذلك كارل بركلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ٣٥٦

باسم الوصاية حينا وباسم القرابة حينا آخر كما تفرد قسم من الامراء بحكم اماراتهم على مزاجهم الشخصي غير عابئين بقرارات الملك أو باتفاقياته ومعاهداته مع الاصدقاء والاعداء على السواء.

فلقد تمرد أمير الكرك على الملك (غي) ورفض اعادة أسرى القافلة التجارية بدعوى أنه حر التصرف ضمن امارته وكان خرقه لهذه الاتفاقية هو السبب المباشر الذي دفع صلاح الدين الى اعلان النفير العام والاستعداد للمعركة الفاصلة.

كما كان تمرد (ريموند الثالث) ورفضه تقديم الطاعة للملك (غي) دليلا آخر يؤكد ضعف ملك بيت المقدس وعدم قدرته على اتخاذ القرارات الحاسمة في مواجهة الظروف المصيرية.

واذا كان ملك بيت المقدس عاجزا عن اتخاذ القرار المناسب في أوقات السلم فكيف سيكون باستطاعته اتخاذ القرارات الحاسمة في أوقات الحرب؟

لقد كان عاجزا عن السيطرة على الاميرين (ريموند الثالث) أمير طرابلس و (رينو دي شاتيون) أمير الكرك في الظروف العادية فكيف سيكون موقفه عند احتدام القتال؟.

الفصل الثالث

٦ - التخطيط الميداني للمعركة:

أ - المعسكـر الاسلامـي:

بعد أن أعلن (صلاح الدين) النفير العام فقد خرج من دمشق في مـطلع شهر نيسان عام (١١٨٧) ميلادية الى منطقة (رأس الماء) شمال غرب حوران واتخذها منطقة للحشد ثم ترك فيها ولده (الافضل) وسار الى (بصرى) ثم الى منطقة الكرك وذلك من أجل حماية قافلة الحجاج التي كانت قادمة من الحجاز في ذلك الوقت وكذلك لحماية الجيش المصري القادم للاشتراك في المعركة الفاصلة.

لقد أدرك (صلاح الدين) أهمية تأمين الطرق الادارية والعسكرية التي تخـدم حركة قواته ولذلك سعى بنفسه لحمايتها وتفويت الفرصة على (رينو دي شاتيون) للتدخل فيها أو الاعتداء عليها.

كما أدرك أهمية عزل امارة الكرك عن ممارسـة نشاطهـا الميداني في المعـركة الفاصلة ولذلك فان حركة (صلاح الدين) إلى منطقة الكرك خلال مرحلة الحشد تدل على أهليته العسكرية وقدرته على صنع القرار الاستراتيجي وخلق الظروف الملائمة لانجاحه.

لقد أصدر البطل قراره بخوض المعركة الفاصلة ضد الغزاة وهو قرار استراتيجي خطير لذلك فقد مهد جميع الاسباب وهيأ كل الظروف لانجاحه ومن هذه الظروف ما كان يستدعي القرار تهيئتها في مرحلة سابقة كتوحيد البلاد العربية والاسلامية في العراق والشام ومصر ضمن دولة واحدة وزعامة دينية واحدة.

وكذلك فقد دمر اقتصاد مملكة بيت المقدس وعمل على تدميرها من الداخل وقد نجح (صلاح الدين) في ذلك كل النجاح كما نجح في توقيت اصدار القرار الاستراتيجي حيث كان كل شيء في تلك المملكة يشير الى نهايتها وزوالها.

ان البطل القادر على صنع القرار والتمهيد له وتوقيته لا تخفى عليـه الظروف الميدانية التي ربما تسبب له الفشل أو تفرض عليه الهزيمة.

لقد كان (صلاح الدين) عالما بهدفه ساعيا إليه وباذلا كل جهده لتحقيقه ولذلك كانت حركته إلى امارة الكرك إنما تهـدف إلى عزلهـا وتأمـين طرق الامداد ووصـول التعزيزات من مصر دون أن يتمكن أميرها الأرعن من قـطع خطوط الامـداد أو منع التعزيزات المصرية من الاتصال بالقوات الشامية.

كما كانت حركته إلى (بانياس) تهـدف إلى اختبار مـدى التزام أمـير طرابلس بمعاهدة الصداقة المعقودة بينهما من جهة وتعميق عوامل الصراع والانقسام في معسكر الافرنج من جهة أخرى.

وفي هذا المجال فقد كانت أوامره إلى أمير حلب بالتقرب من أمير انطاكيا وعقد هدنة معه جريا على نفس السياسة التي انتهجها (صلاح الدين) لشل القدرة العسكرية لمملكة بيت المقدس في المعركة الفاصلة.

وبعد أن أكمل صلاح الدين حشد قواته تقدم بهم نحو منطقة الاقحوانة (الشونة الشمالية حاليا) كمرحلة أولى على طريق التقدم وقد عسكر فيها لمدة خمسة أيام وكان قبل ذلك قد بعث الى ابنه الافضل الذي كان يعسكر في (بانياس) يأمره بارسال قوة استطلاعية عبر منطقة الجليل التي كانت تابعة (لريموند الثالث) أمير طرابلس وبعد أن استأذن (الأفضل) من أمير طرابلس للسماح لهذه القوة بالمرور من خلال امارته، فقد كلف مظفر الدين كوكبري بقيادتها وكان قوامها سبعة آلاف مقاتل[١] وقد اتجهت هذه القوة الى منطقة عكا لاستطلاع قوات العدو المحتشدة ومراقبة تحركاتها فاشتبكت هذه الدورية الكبيرة مع فرسان الداوية والاسبتارية في معركة عنيفة بعد عودتها قرب صفورية وأبادت القوة المعادية ابادة كاملة ولم ينج منها إلا ثلاثة أشخاص كان أحدهم (جيرار دي فورت) مقدم الدّاويّة[٢] ويمكن تصنيف هذه القوة الاستطلاعية في العلم العسكري الحديث تحت نظرية الاستطلاع بالقوة التي تنفذها التشكيلات المدرعة قبل القيام بهجومها الحاسم.

ثم واصل صلاح الدين تقدمه فعبر نهر الاردن عند جسر (الصّنبرة) جنوب بحيرة طبريا وعسكر في منطقة (كفر سبت) على بعد خمسة أميال غرب البحيرة وهي مشهورة بمراعيها ومياهها.

ثم جاءته الاخبار بتحرك جيش الفرنجة من منطقة عكا إلى صفورية وهي منطقة دفاعية جيدة ومشهورة أيضا بوفرة مياهها، وعلم صلاح الدين كذلك أن ريموند أمير طرابلس قد انضم اليهم في عما بعد المصالحة بينه وبين الملك (غي) وأنه هو الذي أشار على ملك بيت المقدس بالتوجه الى صفورية باعتبارها أفضل منطقة دفاعية فلا يتمكن صلاح الدين من مهاجمتهم فيها واذا فعل ذلك يكون قد عرض جنوده للارهاق والفشل المحتوم.

لم يتحرك صلاح الدين لملاقاة أعدائه في صفورية حيث الموقع الدفاعي المحصن وانما تحرك لاحتلال مدينة طبريا نكاية بريموند الثالث من جهة ودفعا لأعدائه لمغادرة صفورية لنجدة طبريا من جهة ثانية.

وقد دفع صلاح الدين بقوة من جيشه تمكنت من احتلال المدينة حيث احتمت صاحبتها (استيف زوجة ريموند الثالث) بالقلعة وبقيت محاصرة فيها، فبعثت الى زوجها والى الملك (غي) تطلب منهما النجدة وتستغيث لفك الحصار المضروب على قلعتها فكانت

---

(١) بسام العسلي: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية (ص ٩٥).
(٢) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق (ص ٣٨٦).

النتيجة التي توخاها صلاح الدين حيث خرج جيش الفرنجة من موقعه الدفاعي الحصين في صفورية ليواجه قدره المحتوم عند (قرني حطين).

ب - معسكر الافرنج:

يمكن وصف التخطيط الميداني للفرنجة بالسلبية في مواجهة أمر واقع لا قدرة لهم على التدخل فيه لتغيير مساره أو منع حدوثه فهم لا يستطيعون أن يمنعوا صلاح الدين من احتلال طبريا كما لا يستطيعون رفع حصاره عن قلعتها وكل الذي يستطيعون عمله هو أن ينتظروا في صفورية حتى حلول فصل الشتاء حيث يعود جنود المسلمين خلال هذا الفصل الى منازلهم ولا يستطيع صلاح الدين أن يمنعهم من ذلك أو أن يؤجل عودتهم وهذا ما أشار به عليهم حكيمهم ريموند الثالث حيث قال: (لا تخاطروا بالمملكة بتعريض الجيش الميداني للخطر تخلوا عن طبريا وابقوا هنا في صفورية)[1].

وعندما اتهم بالخيانة والجبن من قبل مقدم الداوية (جيرار دي فورت) وأمير الكرك (رينو دي شاتيون) أجاب قائلا[2]: (ان انقاذ طبريا يهمني شخصيا أكثر من أصحاب السمو الامراء فهي خاضعة لسلطاني وبداخلها زوجتي وأولادي وثروتي ولكني لا أرى ما يراه الزملاء من وجوب مهاجمة العدو في طبريا لاننا اذ نخطو هذه الخطوة نكون قد وقعنا في الشرك الذي نصبه صلاح الدين لنا وهو الاندفاع في هذه المنطقة الصحراوية القاحلة في شهر تموز والرأي عندي أن نترك العدو وشأنه في طبريا لان سقوط هذه المدينة وقلعتها لا أهمية له من الوجهة الحربية فان غرض السلطان من مهاجمتها هو استدراجنا الى الخروج من صفورية لنهلك عطشا وبحد السيف في الصحراء القاحلة أما اذا لزمنا موقعنا الدفاعي الحالي فان صلاح الدين سيضطر الى الجلاء عن طبريا فندخلها دون قتال.

ان جيش صلاح الدين أكبر من جيشكم وفرسانه أمهر من فرسانكم، دعوا طبريا يصيبها ما يصيبها وفيها أهلي وثروتي وانقذوا جيشكم الذي هو آخر رجاء للفرنجة في الشرق)[3].

ان المحاورة بين ريموند والأمراء المتطرفين تبين مدى حكمة ريموند وسوء تقدير خصومه ولكن الامم في نهاية حياتها لا تنفعها الحكمة كما لا يعوزها التطرف وسوء التقدير، ويقول العقاد[4] في هذا المجال:

«إن الأمم لا تقفر من الأحلام كل الاقفار في أظلم ظلمات الجهالة والادبار وأنه لعلامة من علامات الانحلال والزوال أن يعرف المرض ولا ينتفع بعرفاته في العلاج اذا شارف الجسم الفناء».

---

(١) ر. سي. سميل: الحروب الصليبية (ص ١٧٧).

(٢) قدري قلعجي: صلاح الدين الأيوبي (ص ٣١٥).

(٣) صبحي عبد الحميد: معارك العرب الحاسمة (ص ١٢٥).

(٤) عباس محمود العقاد: العبقريات الاسلامية، عبقرية خالد (ص ٨٥٣).

وماذا يمكن أن تغني حكمة ريموند أو أن تفيد شجاعة خصومه ما دامت قوة مملكة بيت المقدس في تداعٍ مستمر أوشك أن يصل الى القاع وما دامت القوة الاسلامية في تنامٍ صاعد أوشك أن يصل الى القمة.

ان ما يمكن قوله حول معسكر الفرنجة في هذه المرحلة أنهم أخذوا يرقصون على أنغام صلاح الدين دون أن يكون لهم في مواجهته أي خيار فقد فقدوا زمام المبادرة نهائيا.

٧ ـ المعركة الفاصلة في حطين:

أ ـ قوات الطرفين:

١ ـ الجيش الاسلامي:

اختلفت الروايات في تقدير عدد الجيش الاسلامي الذي احتشد تحت قيادة صلاح الدين فبعض الروايات تقول أن عدده قد بلغ (اثني عشر الفا من الفرسان وثلاثة عشر الفا من المشاة)[١] ما عدا المتطوعين للجهاد وقد جاء في رواية أوردها ميخائيل جميعان في كتابه «المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية» أن عدد الجيش الاسلامي الذي تجمع تحت قيادة صلاح الدين قد بلغ (ثمانين ألفا)[٢] ولا نعرف الطريقة التي قدر بها (ميخائيل جميعان) عدد الجيش الاسلامي ولكن روايته غير موثقة بسند تاريخي.

وقد أورد (بسام العسلي) في كتابه «الايام الحاسمة في الحروب الصليبية» (أن صلاح الدين قد قام بعرض قواته التي بلغ عددها اثني عشر ألف فارس ممن له الاقطاع والجامكية سوى المتطوعة).

وفي اعتقادنا أن الجيش الاسلامي كان كثير العدد وأنه قد تجاوز خمسة وعشرين ألفا وفي مثل هذا المعنى قال ابن العماد: (ان اليوم الذي استعرضت فيه هذه الجيوش يذكر بيوم القيامة)[٣] وقال أبو شامة: «كانت جيوش السلطان كالبحر تطوق بحيرة طبريا وكانت السهول الواسعة تختفي تحت انتشار الخيام»[٤]، وقال ريموند الثالث أمير طرابلس يحذر الصليبيين من مغادرة صفورية: «فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديما وحديثا وما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة»[٥].

وليس غريبا أن يجتمع تحت قيادة صلاح الدين مثل هذا الحشد العظيم من الجند النظاميين بعد أن تمكن من تأليف أطراف الدولة وضمها تحت قيادته الحكيمة والشجاعة وليس غريبا أيضا أن يجتمع تحت قيادته أضعاف الارقام المكتوبة بعد أن أعلن صيحة

---

(١) كتاب الروضتين/ ج ٢ (ص ٧٦)، الموسوعة العسكرية، المجلد الأول، ص (٨٢١).
(٢) ميخائيل جميعان: المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية، ص (٨١).
(٣) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق (ص ٣٨٥).
(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين/ج ٢ (ص ٢٦٣).
(٥) بسام العسلي: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية (ص ١٠٠).

الجهاد لتحرير القدس وفلسطين وتطهيرها من الغزاة.

٢ - جيش الفرنجة:

كما اختلفت الروايات في تقدير عدد الجيش الاسلامي فقد اختلفت كذلك في تقدير عدد جيش الفرنجة فقد ذكر (فيليب حتي) في كتابه «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين» أن عدد هذا الجيش قد بلغ (عشرين ألفا)[١] بين فارس وراجل.

وتراوحت الارقام التي أوردها المؤرخون في عدد هذا الجيش بين (عشرين ألفا الى اثني وعشرين ألفا) وبعضها ذكرت أنه قد وصل (خمسين ألفا أو ستين ألفا)[٢] أما ميخائيل جميعان فقد أورد أنه قد وصل إلى (ثمانين ألفا)[٣].

وفي اعتقادي أن عدد هذا الجيش لم يكن قد تجاوز الرقم الذي أورده (فيليب حتي) وربما كان أقل من ذلك بكثير ولئن درجت الروايات العربية الاسلامية على حشد الاعداد الهائلة للجيوش المعادية وتقليل عدد الجيوش الاسلامية في معارك سابقة كاليرموك والقادسية فان ظروف تلك المعارك وقدرة تلك الامم التي حاربها المسلمون على حشد الجيوش كانت مختلفة ونحن نعتقد أن مملكة بيت المقدس في أواخر أيامها لم تتمكن من حشد أكثر من عشرين ألفا التي أوردها (فيليب حتي) في كتابه «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين» كما أن ميدان المعركة لا يتسع لاكثر من ذلك.

ب - ميدان المعركة:

بعد أن عبر صلاح الدين بجيشه نهر الاردن عند (جسر الصنبرة) جنوب بحيرة طبريا نزل بقواته في منطقة (كفرسبت) التي تبعد خمسة أميال جنوب غرب بحيرة طبريا.

أما جيش الافرنج فقد تقدم من (عكا) الى (صفورية) التي تبعد ثمانية عشر ميلا إلى الغرب من طبريا وكانت منطقة دفاعية محصنة تكثر فيها المراعي والمياه وتعتبر من أنسب الأماكن الدفاعية حيث عمل الافرنج على تحصينها في فترات زمنية سابقة، أما منطقة (كفرسبت) فلا تعتبر مناسبة للدفاع ولم يكن القصد الذي توخاه صلاح الدين من النزول فيها لغايات دفاعية لان هدفه لم يكن دفاعيا وانما كان قد تقدم من دمشق الى (الاقحوانة) وعبر نهر الاردن إلى (كفر سبت) لملاقاة جيش عدوه وتدميره فأهدافه تعرضية هجومية وفي المفهوم العسكري الحديث فإن الجيش الاسلامي بقيادة صلاح الدين كان (متقدما للاشتباك) في مكان وزمان سيتعينان فيما بعد.

ولذلك عندما علم بنزول اعدائه في (صفورية) لم يواصل تقدمه إليها وإنما نزل (كفر سبت) لما توفره من مياه ومراعي (كمنطقة إدارية تموينية جيدة).

لم يقبل القائد الاسلامي البطل ميدان المعركة الذي اختاره أعداؤه في صفورية

---

(١) فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين/ ج ٢ (ص ٢٣٧).
(٢) الموسوعة العسكرية، المجلد الأول، ص (٨٢١).
(٣) ميخائيل جميعان: المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية (ص ٨١).

المرحلة الثالثة

خارطة عمليات صلاح الدين التي نفذها في منطقة الحشد قبل المعركة الفاصلة



المرحلة الثالثة

حركة قوات الطرفين من مناطق الحشد إلى ميدان المعركة

وإنما توجه فورا بجزء كبير من قواته واحتل مدينة طبريا وحاصر قلعتها لكي يخرجهم من مواقعهم الدفاعية المحصنة ويفرض عليهم ميدانا للمعركة لا يناسبهم وهكذا خرج الافرنج من صفورية وكلهم أمل أن يصلوا الى طبريا ويبعدوا صلاح الدين وجيشه عنها، وهم رغم حشدهم واستعدادهم الكامل للدفاع عن مملكة بيت المقدس إلا أنهم كانوا يتجنبون الاشتباك الحاسم مع المسلمين، وكان هدفهم محصورا في انقاذ طبريا بينما كان قصد صلاح الدين تدمير الجيش الافرنج بكامله في معركة فاصلة فتصبح الطريق بعد ذلك ممهدة لتحرير القدس وبقية المدن الاسلامية والقلاع المحصنة.

اختار صلاح الدين منطقة حطين والسفوح الغربية المطلة على بحيرة طبريا ميدانا للمعركة وقد فرض زمانها على أعدائه في مطلع شهر تموز وفي منطقة غورية فاجتمع في ميدان المعركة حرارة الزمان والمكان وأضاف إليه صلاح الدين حرمان عدوه من الاستفادة ولو من قطرة واحدة من الماء وأمر جنوده بإشعال الحرائق في الأشجار والحشائش اليابسة ليزيد لهيب النار في حرقة الأجواف المتعطشة لقطرات المياه.

ج - الاشتباك الحاسم:

بدأت معركة التعرض من قبل الجانب الاسلامي منذ تلك اللحظة التي اتخذ فيها صلاح الدين قراره بالهجوم على طبريا أما بالنسبة للجانب المعادي فقد بدأت منذ أن اتخذ ملك بيت المقدس (غي دي لوزينان) قراره بالتخلي عن موقعه الدفاعي الحصين في صفورية والتوجه الى طبريا لانقاذها.

ومنذ أن بدأت قوات الفرنجة بالتحرك ألى طبريا سالكة الطريق الشمالي المؤدي إلى حطين فقد قرر صلاح الدين على الفور ترك معسكره في (كفر سبت) والتوجه شمالا إلى حطين لكي يغلق الطريق الذي يؤدي بالجيش الافرنجي إلى المدينة المحاصرة ثم أصدر أوامره إلى فرسانه بتنفيذ الاشتباك مع الجيش المعادي أثناء زحفه على طول الطريق المؤدي إلى طبريا، وقد مارس الفرسان هجماتهم السريعة على مقدمات العدو ومؤخراته في وقت واحد حيث حاول الفرنجة المقاومة والاحتمال وما أن حل المساء حيث وصلت القوات المعادية قرب حطين حتى كانوا في حالة من الانهاك والاعياء لا يستطيعون معها مواصلة السير فقرر ملكهم وقف التقدم والمبيت حتى صباح اليوم التالي وكانت التشكيلة التي تقدم بها جيش الفرنجة من صفورية إلى حطين تشابه تشكيلة التقدم في العصر الحديث حيث كان «ريموند الثالث يقود المقدمة بينما كان (جيرار دي فورت) يقود المؤخرة وكان الملك وحاشيته في الوسط»[1].

لقد كان قرار الملك (غي) بالتوقف للاستراحة والمبيت عند حطين على مسافة خمسة أميال من طبريا لا يقل في خطورته عن قراره بالتخلي عن معسكره في صفورية من أجل إنقاذ طبريا.

---

(١) الموسوعة العسكرية، المجلد الأول، ص (٨٢١).

وما أن علم صلاح الدين بوقفتهم حتى ازداد سروره وفرحه وأيقن أن تباشير النصر أخذت تلوح أمامه وقد عمل خلال الليل على تنفيذ خطته العسكرية التي تدعى في العلم العسكري الحديث (خطة القفل) فأحاط بالقوات المعادية من جميع الجهات.

ولم يكن الاشتباك في اليوم الاول (الجمعة الموافق ٣ تموز ١١٨٧) ميلادية حاسما فقد كان اشتباكا أثناء الزحف بدأه المسلمون كأسلوب من أساليب انهاك القوات المعادية قبل مرحلة الاشتباك الحاسم.

وقد حاول الأفرنج مواصلة التقدم وتجنب الاشتباك مع القوات الاسلامية قدر الامكان ولكن كثافة الهجمات التي شنها فرسان المسلمين على مقدمتهم ومؤخرتهم اضطرتهم إلى التوقف قرب حطين بقصد الاستراحة والمبيت لكي يتسنى لهم مواصلة التقدم مع صباح اليوم التالي.

كان الطقس حارا طيلة النهار وقد واجه الفرنجة كذلك عناء المسير وضغط القوات الاسلامية فما أن جلسوا للاستراحة في منطقة مبيتهم حتى بلغ بهم العطش غاية مداه فأخذوا يتسللون إلى مواقع المياه التي يقيم عليها المسلمون ولكنهم منعوا من الاقتراب منها فباتوا ليلتهم وهم يتحرقون شوقاً إلى بعض قطرات الماء كي يرطبوا بها حلوقهم وأجوافهم ومع كل ذلك فقد كان أملهم كبيرا في وصول مدينة طبريا في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي.

أما صلاح الدين فقد أمضى جزءا كبيرا من الليل وهو يرتب قواته ويحكم ترتيبها وما أن أشرق اليوم التالي (السبت الموافق ٤ تموز)[1] حتى وجد الفرنجة أنفسهم محاصرين من جميع الجهات، فليست الطريق إلى طبريا مفتوحة أمامهم ولا العودة إلى صفورية ميسورة كذلك مع وجود هذه المجموعات من فرسان المسلمين والتي كانت تحكم مواقع القفل الامامية والخلفية كسد منيع لا يمكن أن ينفذ من خلاله شيء.

ان خطة القفل العسكرية التي طبقها (صلاح الدين) لتطويق أعدائه قرب بحيرة (طبريا) تشبه إلى حد كبير خطة الكمين التي أقفل بها (هينبال) على الجيش الروماني قرب بحيرة (كاني) في القرن الرابع قبل ميلاد السيد المسيح (عليه السلام) وهكذا وجد الملك (غي) وبقية الأمراء الآخرين أنفسهم محاصرين تماما ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئا غير القتال.

فالقتال أصبح قدرهم الذي لا مفر منه، لقد أدرك هؤلاء الأمراء المحاصرون جسامة الأخطاء الفاحشة التي ارتكبوها سياسيا وعسكريا فلقد كان حريا بهم أن لا يتنازعوا حول عرش المملكة كما كان حريا بهم كذلك أن يستجيبوا لصوت الحكمة والمنطق الذي أطلقه (ريموند الثالث) أمير طرابلس وهو يقول: (تخلوا عن طبريا وابقوا هنا في صفورية) وإلى تحذيره لهم (بعدم تعريض الجيش الميداني للخطر باخراجه من مواقعه

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. الجزء التاسع، ص (١٧٧).

الدفاعية الحصينة في صفورية لمواجهة جيوش المسلمين في منطقة صحراوية كما قال).

لقد كان تقييم (ريموند الثالث) للموقف الافرنجي العام مع المسلمين شبيها إلى حد كبير بتقييم (كسرى يـزدجرد) للدولة الفـارسية وهي تـواجه جيـوش المسلمين عـلى أطرافها[1]:

(فقد وزن «يزدجرد» شأن العرب والفرس بالميزان الصحيح حين قـال لرستم: «إنما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفي على جبل يأوي إليه الطير بالليل فتبيت في سفحه في أوكارها فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها فإن شذ منها شيء اختطفه، فلو نهضت نهضة واحدة ردته وأشد شيء يكون في ذلك أن تنجو كلها إلا واحدا، وان اختلفت لم تنهض فرقة الا هلكت فهذا مثلهم ومثل الاعاجم».

شيء واحد كان باستطاعة الفرنجة أن يفعلوه قبل خروجهم من صفورية وهو أن يبقوا كما قال لهم حكيمهم ريموند في صفورية أما وقد اتهم (ريموند) بالخيانة لتوقيعه معاهدة الصداقة مع (صلاح الدين) فإن أصوات المتعصبين والمتغطرسين المغالين في عصبيتهم وغطرستهم أمثال: (جيـرار دي فورت، وريـنـو ذي شاتيـون) ستكون هي الأصوات المسموعة في بلاط حاكم ضعيف لا يستطيع السيطرة على مقاليد الأمور في مملكته وستكون تلك الأصوات الناعقة هي المؤشر على اقتراب زوال تلك الدولة العجوز.

وهكذا وجد الفرنجة أنفسهم وقد أحاط بهم المسلمون احاطة السوار بالمعصم يشنون عليهم هجوما عنيفا من جميع الجهات ويغلقون عليهم منافذ الهرب ويمنعون عنهم المياه ويحرقون من حولهم الحشائش والأشجار ليزيد لهيب النار في رفع معـدل حرارة الطقس التي تبلغ عادة أقصى ارتفاع لها في مثل هذا الشهر من العام في غـور الاردن، وكما قال ابن الأثير[1]:

«لقد اجتمع عليهم في ذلك اليوم حر الزمان والمكان ولهيب النار وسيوف الأعداء».

لقد أحسن صلاح الدين اختيار المكان المناسب للمعركـة كما أحسن تـوقيتها واستغل عوامل الطقس وطبيعة الأرض أحسن استغـلال فسخرهـا لخدمـة المعركـة الميدانية كما عمل كل ما بوسعه لمضاعفة تأثيراتها السيئة ضد العدو وأخرج عدوه من مواقعه المحصنة واضطره للحركة في منطقة صحراوية مكشوفة وفرض عليه اشتباكا بقصد الاعياء والانهاك قبل يوم واحد فقط من توقيته للهجوم الحاسم واضطره أيضا للمبيت في العراء بحالة سيئة جدا من الحاجة للماء ثم أحاطه من جميع الجهات سرا وفرض عليه الاشتباك الحاسم في أسوأ حالات الطقس والمناخ.

لقد رتب هذه الأمور الميدانية لخدمة معركته الفاصلة مع أعدائـه أما الأمـور الاستراتيجية كتوحيد الجبهتين الشامية والمصرية وتوحيد القيادة الروحية في خلافة

---

(١) عباس محمود العقاد: العبقريات الاسلامية، عبقرية خالد، دار الآداب، بيروت، ص (٨٥٣).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. الجزء التاسع، ص (١٧٧).

دينية واحدة واستراتيجية الهجوم غير المباشر التي تمثلت في تدمير اقتصاد عدوه وحرق مزروعاته واتلافها فقد سبقت الاشارة اليها آنفا.

قاتل الفرنجة قتالا ضاريا ودافعوا عن أنفسهم دفاع المستميت ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا يمكن أن يخفف من حدة تلك الهجمات الشديدة والمتوالية عليهم.

ومن الطريف في قتال ذلك اليوم الاشارة الى تلك الهجمة القوية التي قام بها (ريموند الثالث) وفرسانه تجاه أحد أجنحة المسلمين حيث تذكر معظم الروايات أنه استطاع بفرسانه أن يفتح ثغرة في ذلك الجناح الذي يقيم عليه (مظفر الدين كوكبري) فيخرج منها هو وفرسانه هاربين من ميدان المعركة، ثم تنسد الفرجة بعد ذلك ويحكم الحصار مرة أخرى.

لقد أحدث فرار (ريموند) وفرسانه ارباكا وضعفا في صفوف الأعداء حيث أصبح المشاة عاجزين عن الاستمرار في القتال رغم استبسالهم في الدفاع عن ملكهم وعن (صليب الصلبوت) الذي كان يحمله أسقف عكا ولكن المسلمين استطاعوا الاستيلاء على هذا الصليب وإسقاط خيمة الملك فاقتيد أسيرا هو وحاشيته ومن بقي من الأمراء على قيد الحياة إلى الخيمة التي أمر السلطان (صلاح الدين) باقامتها لهم، وتذكر أغلب الروايات التاريخية عن تلك المعاملة الطيبة التي عومل بها أولئك الأمراء الأسرى إلى درجة القول بأن (صلاح الدين) قد جلب لهم المياه المثلجة من جبل الشيخ وذلك زيادة منه في الحفاوة والتكريم باستثناء أمير الكرك (رينو دي شاتيون) حيث قطع رأسه وفاء لنذره السابق.

د ـ استثمار الفوز:

كان الهدف الاستراتيجي الذي نذر (صلاح الدين) حياته لتحقيقه هو تحرير مملكة بيت المقدس ولذلك فقد كانت جميع الخطوات السابقة التي خطاها على هذه الطريق هي من أجل تحقيق هذا الهدف الكبير (تحرير مملكة بيت المقدس من أيدي الفرنجة الغزاة).

ولذلك يمكن القول بأن تدمير جيش الفرنجة في حطين كان بمثابة الهدف الميداني الحاسم لتحقيق الهدف الاستراتيجي الكبير، ولما كانت مدينة القدس وليست طبريا هي عاصمة مملكة بيت المقدس لذلك فلا بد من العمل لاتمام ذلك الهدف.

ولكن صلاح الدين لم يتوجه من حطين إلى بيت المقدس مباشرة بل توجه الى قلعة طبريا ثم إلى عكا فنابلس وحيفا وقيسارية والناصرة وصيدا ثم إلى عسقلان والرملة وغزة وبيت جبريل.

إن هذه الحركة العسكرية الدائرية حول بيت المقدس قبل دخولها وتحريرها إنما

كانت من قبيل التدابير الوقائية المطلوبة لعزل المدينة داخليا ومنع وصول التعزيزات إليها من الخارج.

وبعد هذه السلسلة من الاجراءات العسكرية اللازمة توجه إلى القدس وفرض عليها حصارا عسكريا بعد أن تمكن من عزلها برا وبحرا ومنح سكانها الأمان وعاملهم بمنتهى التسامح والاحسان.

الفصل الرابع



٨ ـ مملكة عكا الفرنجية وصلح الرملة:

بعد الانتصار الكبير الذي حققه (صلاح الدين) في حطين وفتحه المدن الساحلية ثم بيت المقدس وبقية القلاع الداخلية المحصنة فقد سمح للافرنج بالتوجه إلى مدينة (صور)[1] الساحلية على البحر الأبيض المتوسط.

ومن مدينة صور أخذ الملك (غي) ـ وبعد أن أطلق سراحه من الأسر ـ يتصل بالبابا وملوك أوروبا يستصرخهم ويناشد ضمائرهم وأرواحهم ويصفهم بالتقصير إذا لم يهبوا لاسترجاع بيت المقدس من أيدي المسلمين.

ومنذ شهر تموز عام ١١٨٧ إلى شهر حزيران عام ١١٩١ استطاع الملك (غي) أن يعيد تنظيم قواته التي تجمعت في صور ويشكل منها قوة عسكرية توجهت لمحاصرة (ميناء عكا)[2].

وخلال هذه الاثناء تجمعت الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ثلاثة من ملوك أوروبا هم: (فردريك بربروسا) امبراطور المانيا، و (ريتشارد) الملقب بقلب الأسد ملك بريطانيا، و (فيليب اغسطس) ملك فرنسا، وقد توجهوا إلى فلسطين من طريقين مختلفين:

الطريق الأول عبر بلاد الأناضول وقد سار عليه امبراطور المانيا حيث غرق في الطريق فمات وهلك معظم رجاله.

والطريق الثاني من خلال البحر الأبيض المتوسط إلى عكا بشكل مباشر وقد سار عليها ملك بريطانيا وملك فرنسا فوصلا إلى عكا وهي محاصرة من قبل الملك (غي) فتمكنوا جميعا من احتلالها في (١٧ جمادي الآخرة ٥٨٧ هجرية الموافق ١٢ تموز ١١٩١ ميلادية)[3].

ان اعادة احتلال مدينة عكا من قبل الافرنج بعد أربعة أعوام من معركة حطين مع استمرارية تدفق الحملات الصليبية إلى بلاد المشرق الاسلامي كان قد شكل تهديدا خطيرا لميزان القوى في ذلك الوقت، هذا الميزان الذي رجحت كفته رجحانا تاما لصالح المسلمين في حطين، أما وقد استطاع الفرنجة احتلال (عكا) وإقامة مملكتهم فيها تمهيدا لاسترجاع بيت المقدس فإن لهذه الظاهرة الجديدة أثرها البالغ الخطورة في محاولة انتزاع زمام المبادرة من أيدي المسلمين سيما وقد تمكن (ريتشارد قلب الأسد) من الاغارة على قافلة الامدادات العسكرية التي طلبها (صلاح الدين) من مصر للدفاع عن القدس حيث استطاع أن يفاجيء القافلة العسكرية في صباح يوم الثلاثاء (١١ جمادي الآخرة ٥٨٨ هجرية الموافق ٢٣ حزيران ١١٩٢ ميلادية) وقد تفرقت هذه القافلة وانقسمت الى ثلاثة أقسام:

---

(١) دكتور يوسف غوانمة: امارة الكرك الأيوبية. منشورات بلدية الكرك، ص (١٦٣).

(٢) نفس المرجع السابق، ص (١٦٤).

(٣) ابو شامة: الروضتين. الجزء الثاني، ص (١٦٠).

توجه أحدها إلى الكرك بينما توغل القسم الثاني في البادية وأما القسم الثالث فقد استولى عليه ملك انجلترا (ريتشارد قلب الأسد)[1] وبعد هذه العملية مباشرة أخذت المراسلات تجري بين ملوك الافرنج وصلاح الدين بقصد إرساء قواعد الصلح بين المسلمين والافرنج، وقد تم التوقيع على بنود صلح الرملة من قبل الطرفين بتاريخ (٢١ شعبان ٥٨٨ هجرية الموافق ٢ أيلول ١١٩٢ ميلادية)[2] وهذه البنود هي:

أ - تكون مدن يافا وحيفا وعكا وقيسارية وما يتبع لهذه المدن الساحلية من أعمال بأيدي الفرنجة.

ب - تبقى البلاد الجبلية في الداخل بما فيها من قلاع بأيدي المسلمين.

ج - تقسم مدينتا اللد والرملة مناصفة بين الفريقين المتصالحين.

د - تكون مدينة عسقلان خرابا لا سيطرة فيها لأحد.

هـ - تدخل ولايات (الاسماعيلية، انطاكيا، طرابلس) في الهدنة.

و - يسمح للافرنج بدخول القدس وحرية التجارة وتنقل القوافل بين الطرفين.

ز - مدة الاتفاقية ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر تبدأ بتاريخ (٢ أيلول ١١٩٢).

وقد رحل (ريتشارد) إلى بلاده بعد شهر واحد من توقيعها أما صلاح الدين فقد توفي في (٤ آذار ١١٩٣).

لقد تعرض صلاح الدين إلى انتقادات بعض المؤرخين المسلمين بسبب سماحه للأفرنج الاقامة في مدينة (صور) من جهة وتوقيعه صلح الرملة من جهة أخرى فلقد ذهب (ابن الأثير) إلى القول[3]:

(وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين في اطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندما وأسفا حيث لم ينفعه ذلك).

أما (سبط بن الجوزي) فقد قال[4]:

(لقد صنع السلطان الحزم بتسيير الفرنج إلى (صور) ولم ينظر في عواقب الأمور فإن اجتماعهم (بصور) كان سببا لأخذهم البلاد وقتلهم بعكا من قتلوا من الأعيان وأجناد الاسلام وقد كان الواجب عرضهم على الاسلام فإن أبوا فالسيف وهو أصدق أنباء من الكتب واني أشبه هذه القضية بفدية الأسارى يوم (بدر) حيث أشار بعض الصحابة بأخذ ذلك القول وبعضهم أشار بضرب الرقاب).

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص (١٧٠)؛ وكذلك ابن واصل: مفرج الكروب. الجزء الثاني، ص (٣٨٣).

(٢) أبو الفداء: المختصر. الجزء الثالث، ص (٨٧)؛ وكذلك ابن خلدون: العبر. الجزء الخامس، ص (٣٢٩) وكذلك القلقشندي: صبح الأعشى، الجزء الرابع، ص (١٧٧).

(٣) ابن الأثير: الكامل. الجزء الثاني عشر، ص (٢٣).

(٤) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان. الجزء الثامن، ص (٢٥٥).

أما فيما يتعلق بصلح الرملة فقد أورد (سبط بن الجوزي) ما يمكن اعتباره تبريرا منطقيا لتوقيع اتفاقية هذا الصلح من جانب (صلاح الدين) حيث قال[1]: «وكان من أسباب الصلح أنه خاف على بيت المقدس والناس ملوا وعلتهم الديون».

لقد كان (ابن الأثير) متطرفا جدا وهو يلحق بالسلطان (صلاح الدين) تهمة التفريط في موضوع الاسرى كما كان (سبط بن الجوزي) مغاليا جدا كذلك وهو يفرض على الأسرى أحد أمرين لا ثالث لهما فاما الدخول في الاسلام أو ضرب أعناقهم بالسيف قياسا على (أسارى بدر).

فالذي يبدو من متابعة آراء (ابن الأثير) أنه كان متحاملا ضد السلطان فلقد ألحق به مثلا تهمة التآمر مع فرقة الحشاشين الباطنية التي كان يتزعمها (راشد بن سنان) في ذلك الوقت لقتل الملك (كونراد) ملك عكا.

ومعروف أن صلاح الدين من المسلمين السنة وأن هذه الفرقة هي احدى فرق الباطنية من الاسماعيليين الشيعة وهؤلاء كانوا شديدي العداوة له وقد ظهروا مرات عديدة في معسكره يريدون قتله.

ونحن لو نظرنا إلى الأمور من خلال الأفق الاسلامي الرحب في التعامل مع أبناء الديانات الأخرى، ذلك الأفق الذي كان يتطلع صلاح الدين من خلاله وهو يسعى لتوحيد جناحي الأمة في مصر وبلاد الشام لخوض المعركة الفاصلة مع الافرنج إلى أن تسنى له الانتصار عليهم في حطين واستعادة بيت المقدس وبقية المدن الأخرى من أيديهم.

إن هذه النظرة الاسلامية السمحة في التعامل مع الأسرى لا يضيرها ولا يرفع من قدرها ذم الناقدين أو ثناء المعجبين، لقد تصرف السلطان مع أسراه من الملوك والأمراء الفرنج بما يمليه عليه الخلق الاسلامي الكريم فأكرمهم ثم أرسلهم إلى مدينة صور الساحلية وكأنه يشعرهم بضرورة الابحار إلى بلادهم، أما أن يخيرهم السلطان بين الاسلام والسيف فذلك منطق الغلاة المتعصبين الذين ينظرون إلى الأمور من زاوية واحدة ضيقة ويرون أن قانون الحياة والبقاء يجب أن يكون مرهونا عليهم فقط.

إن السماح للفرنج بالتوجه إلى (صور) لا يشكل خطرا من الناحية العسكرية وإنما هو قرار استراتيجي حكيم ولكن الخطورة كانت مستجدة بعد استيطانهم بصور واتصالاتهم بأوروبا من جهة وما آلت إليه أمور المسلمين بعد وفاة صلاح الدين من جهة أخرى.

فليس قرار السلطان في السماح للفرنج بالتوجه إلى (صور) تفريطا بأمور المسلمين وليس توقيعه على اتفاقية صلح الرملة خطأً كذلك وإنما الخطورة كانت كامنة في أسلوب التعامل مع الأحداث التي استجدت بعد اتخاذ السلطان لتلك القرارات.

---

(١) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان. الجزء الثامن، ص (٢٦٨).

إن مجمل القول في هاتين القضيتين اللتين أثارتا جدلا كبيرا في الأوساط الاسلامية بشكل عام وبعض المؤرخين بشكل خاص أن السلطان (صلاح الدين) كان يدرك أبعاد الانتصار الكبير الذي حققه في حطين حيث كان يعلم علم اليقين أن الدول الأوروبية لن تقف مكتوفة الأيدي تجاه ما حققه صلاح الدين كما أن الكنيسة الغربية لن تغفر لملوك أوروبا موقفا متخاذلا تجاه مملكة بيت المقدس ولذلك فبعد أن حقق السلطان ما حققه في حطين فقد سعى للتخفيف من هول المصيبة التي لحقت بمملكة بيت المقدس والامارات التابعة لها فسمح لهم بالتوجه إلى صور لكي لا تستغل هذه الحالة استغلالا سيئا لتشويه صورة المسلمين في أوروبا فيهرعون من كل حدب وصوب إلى فلسطين لاسترجاعها من أيدي المسلمين.

وباختصار فإن نظرة (صلاح الدين) المستمدة من الأفق الاسلامي الرحب في التعامل مع الأسرى وكذلك حرصه الشديد على بيت المقدس من أن يقع مرة أخرى بأيدي أعدائه الفرنجة هما الأساس في تصرفه في هاتين المسألتين.

٩ ـ استمرار الحملات الفرنجية بعد وفاة صلاح الدين:

توارث أبناء صلاح الدين المملكة الأيوبية بعد وفاة والدهم عام (١١٩٣) ميلادية ثم لم تمض ثمانية أعوام حتى تمكن (العادل) شقيق صلاح الدين من استغلال الخلاف الناشىء بين أبناء أخيه والسيطرة على المملكة بكاملها[١].

وبعد ذلك توالت الحملات الفرنجية على بلاد المشرق الاسلامي ففي عام (١١٩٩ ـ ١٢٠٤) ميلادية كانت الحملة الرابعة وعندما علم بها (العادل) حاول أن يصرفها عن اتجاهها حيث اتفق مع تجار مدينة البندقية حول تغيير خط سيرها إلى القسطنطينية مقابل منحهم مزايا خاصة[٢] فوصلت إلى القسطنطينية وعملت على تدميرها وتسببت في زيادة الصراع بين الكنيستين الشرقية والغربية.

وخلال الفترة (١٢١٨ ـ ١٢٢١) كانت الحملة الخامسة حيث توجهت إلى مصر بقيادة (حنا دبرينين) وقد توفي (العادل) خلال هذه الحملة[٣].

وفي عام (١٢٢٨) ميلادية اتصل (الكامل) بالامبراطور (فردريك الثاني) في صقلية واعداً إياه بأن يسلمه القدس وما يملكه المسلمون في الساحل نكاية بأخيه (المعظم عيسى)، وفي عام ١٢٢٩ وقع الكامل الاتفاقية مع (فردريك) لمدة (عشرة أعوام) وقد سلم بموجبها بيت المقدس والمدن الساحلية للأفرنج[٤].

---

(١) ابو شامة: الروضتين. الجزء الثاني، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٣.
(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية. الجزء الثاني، ص (٩٢٣).
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب. الجزء الثالث، ص (٢٧٦).
(٤) ابن الأثير: الكامل. الجزء الثاني عشر، ص (٤٨٢).

في عام (١٢٣٩) ميلادية تمكن الناصر (داوود) من استرجاع مدينة بيت المقدس بعد أن أرسل لها جيشا حاصرها ثلاثة أسابيع ثم تمكن بعد ذلك من اعادة فتحها[١] بعد أن مضى على تسليمها لهم من قبل الكامل عشرة أعوام.

في عام (١٢٤٠) ميلادية اعتلى الملك (نجم الدين أيوب) عرش مصر[٢] وعمل على توحيد مملكة الأيوبيين.

في عام (١٢٤٩) ميلادية وصلت الحملة الفرنجية السابعة إلى مصر فاحتلت (دمياط) ثم توجهت إلى المنصورة حيث كان الصالح (نجم الدين) ينظم قواته للدفاع عنها ولكن المرض قد اشتد عليه فتوفي في شهر (تشرين ثاني عام ١٢٤٩) فكتمت زوجته (شجرة الدر) خبر وفاته خشية أن يفت ذلك في عضد المسلمين[٣] ثم أرسلت إلى ولده (توران شاه) في الشام لكي يحضر إلى مصر ويتولى عرش والده.

ولكن (توران شاه) بدلا من الاحسان إلى أرملة أبيه وإلى المماليك الذين يرجع إليهم الفضل في انتصاره على الفرنجة فقد أساء إليهم وإلى أرملة أبيه وأخذ يتهددهم فأجمعوا على قتله وتم لهم ذلك في الثالث من أيار عام (١٢٥٠)[٤] ميلادية حيث تولت الحكم (شجرة الدر) باتفاق الأمراء من المماليك الذين كانوا يعاونونها.



(١) المقريزي: السلوك. الجزء الأول، ص (٢٩١).
(٢) نفس المرجع السابق، ص (٢٩٧).
(٣) أبو الفداء: المختصر. الجزء الثالث، ص (١٨٨).
(٤) نفس المرجع السابق، ص (١٩٠).

الفصل الخامس

١٠ ـ الـدروس والعبـر:

أ ـ كانت البلاد العربية الاسلامية (العراق وبلاد الشام ومصر) تعاني في العصور الوسطى أوضاعا سياسية ودينية سيئة فالخلافة الاسلامية منقسمة على نفسها إلى (سنية وشيعية) رغم أن كلتيهما لا تمثلان من السلطة الفعلية إلا اسمها فقط ولا يستطيع الخليفة أن يسيطر على الأمور خارج حدود القصر الذي يسكنه.

أما الجانب السياسي فقد كان السلاجقة الأتراك من أبناء (ألب أرسلان) و (ملكشاه) يتنازعون على عرش السلطنة فعندما دخل الفرنجة بلاد الشام إلى فلسطن وشكلوا مملكة بيت المقدس وبقية الامارات الأخرى (كالرها، أنـطاكيا وطرابلس) فقد كان النزاع محتدما بين أبناء (ملكشاه) مما أضعف قوة الدولة السلجوقية وجعلها عاجزة عن التصدي للحملة الفرنجية الأولى.

ب ـ لقد وجدت الدول الأوروبية في غزو بلاد المشرق الاسلامي ضالتها المنشودة، ففي الوقت الذي كان فيه البابا يخطط للسيطرة على الكنيستين الغربية والشرقية فقد كان يريد أن يفرض سيطرته على ملوك أوروبا، وكذلك فقد وجد أمراء الاقطاع الذين حرموا من الحصول على امارات تابعة لهم فقد وجدوا في بلاد الشرق أملهم وغايتهم كما وجدها أيضا التجار الأوروبيون في مدن (البندقية، جنـوة وبيزا) وغيرها من المدن التجارية الأوروبية، وكذلك العبيد واللصـوص وقطاع الطرق والقتلة المجرمون.

إن هذا الاجماع الأوروبي لغزو بلاد المشرق الاسلامي قد تشكل من خلال وحدة المصالح المختلفة تحت شعار الصليب المقدس لتحرير بيت المقدس يقابله انقسام وتمزق وانحلال في الزعامتـين الدينية والسيـاسية في البـلاد العربيـة الاسلامية.

ج ـ كانت المنطقة العربية الاسلامية خلال فترة (العشرين عاما) التي أعقبت الحملة الفرنجية الأولى تفتقر إلى القيادة السياسية العليا كما تفتقر إلى التنسيق المتبادل بين الأمراء المحليين الأمر الذي رافقه عدم وضوح الرؤيا العامة للدولة السلجوقية في العراق والشام وكذلك الدولة الفاطمية في مصر، حيث نتج عن غيـاب الرؤيا الاستراتيجية عدم وجود أهداف محددة على المستويين الاستراتيجي والمحلي.

د ـ إن ظهور فرقة الحشاشين خلال هذه المرحلة من مراحل الصراع واغتيالها لعدد كبير من رجالات الدولة واعلامها البارزين أمثال الوزيـر نظام الملك وغيـره قد أضعف من قدرة الدولة السلجوقية وساعد على تفتيتها.

هـ ـ عزف الفرنجة على قيثارة الخلاف بين (السنة والشيعة) كما حاولوا استغلال فرقة الحشاشين للعمل إلى جانبهم وتوجيهها لما يخدم مصلحتهم وقد نجحوا في ذلك.

و - عمل الفرنجة خلال هذه المرحلة على اقامة جدار فاصل بين شطري الوطن العربي في بلاد العراق والشام ومصر عن طريق إقامة اماراتهم في مناطق (الرها، أنطاكيا، طرابلس، وامارة شرقي الاردن) وذلك لمنع تحقيق أي اتصال محتمل مستقبلا كما عملوا على إنشاء قلاع عسكرية محصنة على طول خط المواجهة مع المسلمين.

و - عمل الفرنجة خلال هذه المرحلة على إقامة جدار فاصل بين شطري الوطن العربي في بلاد العراق والشام ومصر عن طريق إقامة اماراتهم في مناطق (الرها، أنطاكيا، طرابلس، وامارة شرقي الاردن) وذلك لمنع تحقيق أي اتصال محتمل مستقبلا كما عملوا على إنشاء قلاع عسكرية محصنة على طول خط المواجهة مع المسلمين.

ز - حافظ ملوك الفرنجة وأمراؤهم على مبدأ وحدة القيادة بزعامة ملك بيت المقدس كما حافظوا على زمام المبادرة بأيديهم طيلة هذه المرحلة وقد حاولوا التوسع على حساب الامارات السلجوقية المفككة.

ح - تميزت المرحلة الثانية من مراحل الصراع بالتوازن بين القوى المتصارعة حيث نجح الشيخ عماد الدين زنكي في تأسيس الدولة الزنكية في المناطق الشمالية من العراق وبلاد الشام واستطاع تحرير امارة الرها من أيدي أعدائه ثم سعى ابنه (نور الدين) من بعده إلى توسيع رقعة الدولة فضم إليها دمشق وأجزاء أخرى من امارتي (أنطاكيا وطرابلس).

ط - سعى الفرنجة خلال هذه المرحلة إلى التوجه جنوبا نحو مصر للتوسع على حسابها بعد الانحسار والتآكل الذي أصاب دولتهم في الأطراف الشمالية الشرقية.

ي - الصراع بين الافرنج والزنكيين لاحتلال مصر وقد انتهى بانتصار (نور الدين زنكي) وظهور صلاح الدين في مصر.

ك - كانت الرؤيا الاستراتيجية واضحة للدولة الزنكية خلال هذه المرحلة التي تميزت بوجود قيادة سياسية لها أهداف واضحة ومحددة تخطط لبلوغها من خلال قيادة ميدانية يمارسها رئيس الدولة في جميع الغزوات والحروب.

ل - تم توحيد الزعامة الروحية بالقضاء على الخلافة الفاطمية من قبل صلاح الدين في نهاية هذه المرحلة.

ن - تميزت المرحلة الثالثة بظهور البطل (صلاح الدين الأيوبي) على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية في بلاد الشام ومصر أما في المعسكر الافرنجي فقد تميزت بالنزاع بين أمراء الفرنجة على عرش مملكة بيت المقدس وضعف ملكها وعجزه عن ممارسة سلطانه على الأمراء المحليين الأمر الذي أغرى صلاح الدين باستغلال الظروف المناسبة للعمل ضدهم.

أما الاستراتيجية التي انتهجها صلاح الدين على المستويين السياسي والعسكري

المرحلة الثالثة

المعركة الفاصلة في حطين

عكا

حيفا

فيمكن إجمالها فيما يلي:

١ ـ سعى لتوحيد جبهتي بلاد الشام ومصر بعد وفاة (نور الدين زنكي) عام ١١٧٤) ميلادية وكان قبل ذلك قد استطاع توحيد الزعامة الروحية بعد أن نجح في إزالة الخلافة الفاطمية من مصر.

٢ ـ اتخذ مبدأ التعرض ضد مملكة بيت المقدس وجيشها وكان يهدف من هذا التعرض تحقيق غايات كثيرة منها:

(أ) التعرف على طبيعة قتال جيوش أعدائه وهذا يؤدي به إلى معرفة نواحي قوتها وضعفها كما يكسب قواته خبرة قتالية مع أعدائها قبل خوض المعركة الفاصلة ضدهم.

(ب) القيام بغارات ازعاجية وتخريبية للمحاصيل الزراعية لكي يقلل من القدرة الدفاعية لمملكة بيت المقدس عن طريق إضعاف اقتصادها وتدميره وهذا الأسلوب في تدمير اقتصاد العدو يعتبر أحد وسائل الهجوم غير المباشر ضد امكانيات العدو وقدراته الدفاعية.

(ج) لقد عزف (صلاح الدين) على قيثارة الخلاف بين (ريموند) أمير طرابلس والملك (غي دي لوزينان) حيث عمد إلى توقيع اتفاقية مع (ريموند) استطاع من خلالها أن يخترق معسكر أعدائه في الوقت الذي كان يخطط فيه للمعركة الفاصلة.

(د) كان تحرير بيت المقدس هو الهدف الاستراتيجي (لصلاح الدين) بينما كان هدفه الميداني تدمير جيش الفرنجة في المعركة الفاصلة.

(هـ) إن سياسة الأرض المحروقة وتعطيل عجلة الانتاج الاقتصادية وتحطيم المعنويات وتكريس عوامل الفرقة واذكاء الخصومات الداخلية في صفوف الأعداء، أن كل هذه العوامل تدخل ضمن استراتيجية الهجوم غير المباشر التي انتهجها صلاح الدين لتدمير بنية مملكة بيت المقدس قبل شروعه بالهجوم المباشر عليها في المعركة الميدانية الفاصلة.

س ـ أما على مستوى استراتيجية العمل الميداني فقد انتهج صلاح الدين المبادىء التالية:

١ ـ طبق مبدأ الحشد الميداني للقوات قبل دخولها المعركة الفاصلة حيث أعلن «الجهاد الأعظم» واستنفر القوات من مصر وبلاد الشام والجزيرة والموصل وحلب وبقية المدن الاسلامية الأخرى[1] ثم أخذت جموع المسلمين الغفيرة تتوافد إليه في

(١) العماد الكاتب: الفتح القسي، ص (١٩١).

دمشق حيث خرج بهم إلى حوران وعسكر في منطقة (رأس الماء).

وقد علق ابن واصل على هذا الحشد قائلا[1]:

(ثم خيم في عشترا بحوران فاجتمعت إليه القوات التي كانت برأس الماء وقد غص بها الفضاء واستعرضها فكانت في اثني عشر ألف مقاتل).

٢ - عمل على حماية خطوط تعزيزاته وامداداته الرئيسية وخاصة تلك التي تصل بلاد الشام بمصر.

ولما كانت امارة الكرك تهدد هذا الخط وتستطيع - في ظروف انشغال جيش بلاد الشام في المعركة الفاصلة - أن تستولي على قوافل التموين والتعزيز المصرية القادمة إلى سوريا لذلك فقد تحرك صلاح الدين بجزء من قواته المحتشدة في منطقة (رأس الماء) إلى مدينة الكرك (فحاصرها وأحرق زيتونها وكرومها وفجع أهلها)[2].

إن هذا الهجوم الثانوي الذي قاده صلاح الدين بنفسه ضد امارة الكرك خلال مرحلة الحشد يمكن أن يطلق عليه في العلم العسكري الحديث اصطلاح (الهجوم التضليلي)، أما غايات هذا الهجوم في ذلك الوقت فقد قصد منها:

(أ) تضليل ملك بيت المقدس وأمراء الافرنج عن غايته الرئيسية من إعلان الدعوة للجهاد الأعظم، سيما وأن أمير الكرك كان قد نقض اتفاقية الهدنة واعتدى على قافلة تجارية للمسلمين ولذلك فان هجوم المسلمين على امارة الكرك يمكن أن يدخل في عداد الاجراءات التأديبية الرادعة.

(ب) إجراء وقائي يهدف من خلاله تأمين الحماية لخطوطه الادارية المؤدية إلى مصر والتي يشكل موقع امارة الكرك خطرا عليها.

(ج) إجراء تعبوي يهدف من خلاله عزل امارة الكرك أو منعها من الاشتراك في المعركة الفاصلة.

لقد حقق صلاح الدين كل هذه الغايات من خلال تلك الحركة التعرضية السريعة ضد امارة الكرك حيث حاصر مدينتها وأتلف مزروعاتها وفجع أهلها ولقن أميرها درسا قاسيا على ما اقترفه من جرائم ضد المسلمين وما نهبه من أموالهم.

وكذلك فقد حقق غايته في حماية قافلة التعزيز والامداد التي كانت قادمة من مصر بقيادة أخيه (العادل)، كما نجح في عزل امارة الكرك عن الاشتراك في المعركة الفاصلة حيث أوكل إلى أخيه (العادل) واجب الاستمرار في محاصرتها إلى أن ترده من السلطان أوامر أخرى بعد انتهاء المعركة الفاصلة.

وكذلك فقد أوهم ملك بيت المقدس وبقية الأمراء الآخرين بأنه يهدف فقط تأديب

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب. الجزء الثاني، ص (١٨٨).
(٢) العماد الكاتب: الفتح القسي، ص (٥٩).

أمير الكرك بسبب اعتدائه على قافلة المسلمين التجارية.

٣ - أصدر أوامره إلى ولده (الأفضل) - الذي كان ينوب عن والده في قيادة الجزء المتبقي من القوات في منطقة الحشد الرئيسية في (رأس الماء) - أن يتحرك على رأس قوة عسكرية قوامها سبعة آلاف مقاتل إلى منطقة عكا (سالكا الطريق اليها من خلال امارة طرابلس)[1].

إن هذه العملية الاستطلاعية التي نفذها (الأفضل) بأمر والده تدخل في العلم العسكري الحديث ضمن عمليات الاستطلاع بالقوة التي تقوم بها التشكيلات المدرعة في الوقت الحاضر وهي تشبه إلى حد كبير تلك القوة الاستطلاعية التي بعثها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مشارف بلاد الشام بقيادة (زيد بن حارثة) فوصلت (مؤتة) واشتبكت مع القوات الرومانية ثم انسحب بها خالد بن الوليد عائدا إلى المدينة المنورة.

كما تشكل العملية اختبارا لنوايا (ريموند) أمير طرابلس تجاه الاتفاقية الصادقة التي عقدها مع صلاح الدين من جهة وتزيد في ترسيخ الانقسامات الداخلية في المعسكر المعادي من جهة أخرى.

أما الأفضل فقد نفذ مهمته بنجاح تام حيث قطع نهر الأردن جنوب طبريا من خلال امارة طرابلس واستأذن أميرها (ريموند) بالعبور إلى منطقة الجليل فأذن له حيث واصل نائبه (مظفر الدين كوكبري) سيره غربا وقد جمع كافة المعلومات المطلوبة حول القوات المعادية المحتشدة في منطقة عكا وفي أثناء عودته اعترضته قوة معادية قرب (صفورية) تضم فرقتي (الاسبتارية والداوية) فاشتبك مع هذه القوة وقضى عليها قضاء حاسما ولم ينج منها سوى ثلاثة رجال أحدهم مقدم الداوية (جيرار دي فورت) أما مقدم الاسبتارية فقد قتل في المعركة[2].

٤ - إن عملية الهجوم التضليلي التي قادها صلاح الدين بنفسه ضد امارة الكرك في أقصى الجنوب الشرقي لمملكة بيت المقدس وكذلك عملية الاستطلاع بالقوة التي أوكلها لولده الأفضل ضمن امارة طرابلس ومنطقة الجليل في أقصى الشمال الغربي لمملكة بيت المقدس أن لهاتين العمليتين أبعادا تأثيرية في مجال الاستراتيجية الميدانية من إرباك قادة العدو وتعطيل أو شل قدراتهم الابداعية إلى تشتيت الجهد البشري وبعثرة الامكانيات المادية وخلق جو من الغموض والابهام وتوفير حالات من الحيرة والتردد.

٥ - أوعز السلطان صلاح الدين إلى ابن أخيه (المظفر تقي الدين عمر) أمير حلب أن

---

(١) العماد الكاتب: الفتح القسي، ص (١٩٢).

(٢) ابو شامة: الروضتين. الجزء الثاني، ص (٧٦).

يعقد معاهدة صداقة مع أمير أنطاكيا(١).

إن الهدف من هذه العلاقة يتمثل في تحييد امارة أنطاكيا عن المشاركة في المعركة الفاصلة من جهة كما تساهم في ترسيخ عوامل الفرقة والتجزئة في المعسكر المعادي من جهة أخرى.

٦ ـ تحرك صلاح الدين من منطقة حشده بـ (حوران) إلى منطقة أمامية في غور الأردن الشمالي تسمى (الأقحوانة) بين الشونة الشمالية وطبريا حيث عسكر فيها لمدة خمسة ايام[١].

ويطلق على هذه المنطقة من الناحية التعبوية خلال عمليات تقدم القوات (منطقة المأوى).

٧ ـ عندما علم صلاح الدين بتقدم القوات المعادية من (عكا) إلى (صفورية) فقد تحرك من منطقة الاقحوانة وقطع نهر الأردن عند (جسر الصنبرة) ـ وهي نقطة خروجه من بحيرة طبريا جنوبا ـ ثم أرسل قسما من قواته لاحتلال مدينة طبريا بينما تقدم بالقسم الآخر إلى منطقة (كفر سبت) جنوب غرب طبريا كمنطقة ادارية تموينية لما يتوفر فيها من الينابيع العذبة والمراعي الجيدة.

إن احتلال مدينة طبريا من قبل السلطان صلاح الدين ليس على غاية كبيرة من الأهمية إلا بمقدار ما يحققه هذا الاحتلال من ضغط على القوات المعادية المحتشدة في صفورية بقصد اجبارها على مغادرة معسكرها الدفاعي والتوجه لانقاذ (الكونتيسة ستيف) زوجة ريموند المحاصرة داخل قلعة طبريا.

وكذلك فان منطقة (كفر سبت) لا تشكل موقعا دفاعيا مناسبا لأن غاية السلطان ليست دفاعية وإنما كان متقدما للاشتباك مع العدو فحركته تعرضية هجومية والمهاجم يهدف بالمرتبة الأولى إلى تدمير القوات المعادية ثم يأتي احتلال الأرض في المرتبة الثانية أما المدافع فإن غايته الأولى الاحتفاظ بالأرض ولهذا كان خروج الفرنجة من صفورية خطأً قاتلا بالنسبة لهم.

٨ ـ عندما غادر جيش الافرنج مواقعه الدفاعية في صفورية غادر صلاح الدين موقعه الاداري في (كفر سبت) حيث توجه إلى منطقة (قرني حطين) على الطريق الواصل بين صفورية وطبريا وعلى مسافة خمسة أميال إلى الغرب من طبريا.

إن حركة السلطان إلى الموقع الجديد في حطين إنما يهدف من ورائها إلى تدمير الجيش المعادي بعد أن نجح في إخراجه من صفورية (يوم الجمعة الموافق ٣ تموز ١١٨٧) ميلادية.

---

(١) ابو شامة: الروضتين. الجزء الثاني، ص (٨٢).

(٢) ابن الأثير: الكامل. الجزء الحادي عشر، ص (٥٣٣).

٩ ـ أصدر السلطان أوامره لقادة جيشه من الفرسان بالتعرض والاشتباك مع القوات المعادية على طول الطريق المؤدي من صفورية إلى حطين.

إن عمليات التعرض للقوات المعادية أثناء حركتها إنما يسبب لها الانهاك والاعياء خاصة في ظروف مناخية سيئة.

إن عملية الانهاك الشديدة التي فرضها السلطان ضد أعدائه كانت مقدمة لمرحلة الهجوم الحاسم التي سينفذها ضدهم مع صباح اليوم التالي.

وقد نجح السلطان في تحقيق قصده فما أن وصلت القوات المعادية قرب حطين مع مساء ذلك اليوم حتى كانت منهوكة خائرة القوى، ففرض عليها التوقف للمبيت حتى صباح اليوم التالي.

١٠ ـ عمل السلطان على ترتيب قواته خلال الليل وأطبق على القوات المعادية من جميع الجهات.

إن الخطة التي نفذها السلطان في محاصرته لقوات أعدائه تعرف في العلم العسكري الحديث (بخطة القفل العسكرية) وهذه الخطة يعمد إليها القادة العسكريون عادة عندما يكون همهم الأكبر تدمير القوات المعادية وإبادتها عن بكرة أبيها ولا يلجأون إليها إلا وهم متأكدون من حتمية النصر لأن القوات المحصورة عادة تبدي شجاعة نادرة في قتالها تتجاوز حدود التوقعات التقديرية.

١١ ـ اختار السلطان صلاح الدين الزمان والمكان المناسبين له لتدمير القوات المعادية، واستفاد من الطقس والأرض وسخرها لخدمة غرضه كما ضاعف من تأثيراتهما السيئة ضد العدو باشعاله الحرائق ليزيد في ارتفاع حرارة الطقس التي تبلغ عادة أقصى ارتفاع لها في شهر تموز من كل عام فكيف بها في منطقة غورية دون مستوى سطح البحر بمئات الامتار كما حرم أعداءه من الحصول على قطرة واحدة من الماء وفرض عليهم اشتباكا بقصد الاعياء والانهاك طيلة يوم كامل أثناء تقدمهم وحركتهم حيث كانت القوات المعادية تعاني وضعا جسيما ونفسيا سيئا لا يمكنها من الاستمرار في القتال.

ولذلك فإن قوات الفرنجة لم تتمكن من القتال لمدة طويلة فلقد تقررت المعركة منذ الساعات الأولى من الاشتباك الحاسم في اليوم التالي (السبت الموافق ٤ تموز) وأن عملية استمرار القتال لم تكن تتجاوز ساعات الظهيرة حيث سقطت خيمة الملك واستسلمت جميع القوات المعادية خاصة وأن أمير طرابلس (ريموند الثالث) قد تمكن من الفرار مع مجموعة كبيرة من الفرسان الذين كانوا يقاتلون معه.

إن عملية فرار (ريموند) بشكل مبكر من ميدان المعركة كان له تأثير سلبي

كبير على نفوس المقاتلين الافرنج كما أحدثت عملية فراره مع فرسانه ارباكا وبلبلة في صفوفهم.

١٢ ـ لقد تصرف السلطان صلاح الدين مع ملك بيت المقدس والأمراء الأفرنج وجنودهم الأسرى تصرفا اسلاميا نبيلا حيث عاملهم بما تقتضيه الاخلاق الاسلامية السمحة فأكرمهم وجلب لهم الماء المثلج من جبل الشيخ وسمح لهم بالتوجه الى مدينة صور كايحاء لهم بالابحار منها الى بلادهم.

ع ـ أما في مجال السياسة الخارجية فلقد حاول تسخيرها لخدمة هدفه الاستراتيجي في إضعاف مملكة بيت المقدس وعزلها قبل أن يقوم بالهجوم المباشر عليها، ففيما يتعلق بالجمهوريات الايطالية فقد عقد معها اتفاقيات تجارية مستغلا بذلك مصالحها التجارية في مصر[١].

أما فيما يتعلق بالامبراطورية البيزنطية فلقد استغل أيضا ميلها الشديد لاقامة علاقات ودية معه سيما وقد أدركت قوته المتنامية وضعف مملكة بيت المقدس وتلاشي اماراتها تدريجيا وكذلك التمزق والنزاعات بين أمرائها على عرش المملكة من جهة وعلى مكاسب مادية وأهواء رخيصة من جهة أخرى.

لذلك فقد وجدت الدولة البيزنطية أن من مصلحتها التخلي عن مملكة بيت المقدس والارتباط بعلاقات ودية مع صلاح الدين وقد استغل السلطان هذه الفرصة وتحالف معهم[٢].

لقد استطاع السلطان استغلال علاقاته السياسية الخارجية وتسخيرها لخدمة هدفه في تحرير بيت المقدس وطرد الفرنجة منها.

---

(١) القلقشندي: صبح الاعشى. الجزء الثالث عشر، ص (٨٨).

(٢) هاملتون جب: صلاح الدين، ص (١٤٧).

الباب الثاني

معركة عين جالوت

الفصل الأول

معركة عين جالوت

١ - لمحة تاريخية:

ترتبط معركة عين جالوت ارتباطا وثيقا بمعركة حطين التي سبقتها بثلاثة وسبعين عاما حيث تعتبر امتدادا لها من الناحية التاريخية كما ينظر إليها من حيث الأهمية العسكرية على أنها أعظم المعارك الاسلامية الفاصلة على الاطلاق فما كان لدولة الاسلام أن تزول نهائيا لو فشلت جيوشها في معركتي اليرموك والقادسية وما كان يمكن أن ينقلب ميزان القوة العسكرية بين المسلمين والفرنجة إلى الأبد لو أحرزوا نجاحا في حطين ولكن دولة الخلافة الاسلامية قد زالت عندما دمر التتار عاصمتها بغداد عام (١٢٥٨م) وأبادوا سكانها ثم فعلوا في حلب ودمشق وبقية المدن الشامية ما فعلوه في بغداد ولم يبق أمامهم من قوة عسكرية يمكن أن تمنعهم من تدمير العالم الاسلامي وتغير ملامح الخريطة الاسلامية غير القوة المصرية التي انطلقت لمواجهة المغول في عين جالوت.

وتختلف هذه المعركة عن سابقاتها من المعارك الاسلامية الفاصلة بأنها ليست تعرضية هجومية وإنما هي معركة دفاعية نجح العدو في فرض زمانها على الأمة الاسلامية ولكنه أخفق في تحديد مكانها الطبوغرافي.

ويمكننا القول أن معركة عين جالوت هي معركة الدفاع عو وجود الأمة الاسلامية بعد أن تعرض هذا الوجود برمته إلى الخطر والزوال أمام الاعصار الشرقي القادم من منغوليا أو من بلاد التتار، لقد أخذ نجم المغول في الصعود كأمة عسكرية منذ أن اختار المغول (ديموجين) المعروف باسم جنكيز خان) ملكا عليهم عام (١١٩٤) وقد قضى (جنكيز خان) فترة من الوقت في تنظيم دولته وبناء قواته العسكرية ثم توجه في عام (١٢١٥) إلى الصين واستولى على عاصمتها (بكين) ثم سعى إلى إقامة علاقة تجارية مع الدولة الخوارزمية الاسلامية فبعث وفدا بهذا الخصوص إلى بلاط المملكة الخوارزمية ولكن المسلمين تعرضوا لهذا الوفد قرب مدينة (أوترار) وقتلوهم وكان عددهم (٤٥٠) رجلا وعندما علم جنكيزخان بذلك قرر مهاجمة الدولة الخوارزمية (وحشد لذلك أربعة جيوش توجه أولها إلى مدينة (اوترار) في حين توجه الثاني إلى مدينة (جند) وقد توجه الثالث إلى منافذ نهر جيحون، وأما الرابع فقد كان تحت قيادته شخصيا وقد سار به إلى مدينتي (بخاري وسمرقند)[١] وقد توفي جنكيز خان عام (١٢٢٧) بعد أن احتل اقليم خوارزم ونيسابور وغزنة وبلخ والري، تولى (اوكتاي) عرش مملكة المغول بعد وفاة والده ثم توجه إلى روسيا فأحرق عاصمتها (موسكو) ومن هناك واصل تقدمه غربا إلى اوروبا ففتح (بولندا وبرلين وفيينا) ثم مات قبل أن يصل الى (روما) فتولى العرش بعده ابنه (منكو) فكلف أخاه (هولاكو) باستئناف الزحف عبر بلاد فارس إلى بغداد حيث فتحها عام (١٢٥٨) وفتك بأهلها وأحرق معالمها ثم واصل زحفه نحو حلب ودمشق ففتحها وفعل

---

(١) صبحي عبد الحميد: معارك العرب الحاسمة، ص (١٣٢).

فيها ما فعله في بغداد ومن دمشق أرسل هولاكو إلى السلطان (قطز) يأمره بالتسليم والخضوع وقبل أن ينتظر جوابه المتمثل بقتل الرسل وتعليقهم على (باب زويلة) في القاهرة فقد علم هولاكو بوفاة أخيه (منكو) فقفل عائدا إلى بلاده لتولي عرش مملكتها تاركا مقدم الجيش (كتبغا) نائبا عاما له.

٢ - الأوضاع العامة في المنطقة:

توارث أبناء صلاح الدين المملكة الأيوبية بعد وفاة والدهم عام (١١٩٣) ولم تمض سنتان على وفاته حتى تمكن (العادل) شقيق صلاح الدين من استغلال الخلاف الناشيء بين أبناء أخيه والسيطرة على المملكة بكاملها ثم توالت الحملات الفرنجية بعد ذلك ففي عام (١١٩٩ - ١٢٠٤) كانت الحملة الرابعة حيث وصلت إلى القسطنطينية وعملت على تدميرها فتسببت في زيادة الصراع بين الكنيستين الشرقية والغربية، ثم جاءت بعدها الحملة الخامسة إلى مصر عام (١٢١٨ - ١٢٢١) وقد توفي (العادل) عام ١٢١٨ قبل أن يطمئن إلى طرد الفرنجة من مصر ثم انقسمت المملكة بين أبنائه الثلاثة فكان الكامل في مصر والأشرف في حلب والمعظم عيسى في دمشق وقد تعاون الأخوة الثلاثة لطرد الأعداء من مصر.

ولكن الخلاف قد نشب بينهم بعد زوال الخطر الفرنجي عن مصر ومما زاد من خطورة الوضع الداخلي ظهور خطر الخوارزمية من الشرق فاستغل الفرنجة هذا الموقف وأخذوا يمارسون الضغط على (الكامل) لاستعادة القدس من أيدي المسلمين ففي عام ١٢٢٨ وصل الامبراطور الالماني فردريك الثاني إلى عكا وعقد اتفاقا مع الكامل تم بموجبه تسليم القدس للفرنجة مع السماح للمسلمين بحرية العبادة في أماكنهم المقدسة.

وفي عام ١٢٣٩ وصلت حملة أوروبية الى غزة تضم بعض البارونات ولكنها منيت بهزيمة كبيرة.

وفي عام (١٢٤٠) اعتلى الملك الصالح (نجم الدين أيوب) عرش مصر وعمل على توحيد مملكة الأيوبيين، وخلال فترة حكمه عام (١٢٤٤) تمكن فرسان الخوارزمية من الاستيلاء على القدس وطرد الفرنجة منها كما استطاع الجيش المصري تدمير جيش الفرنجة قرب غزة.

ولم يتوقف الفرنجة عن غزو مصر ففي عام ١١٤٩ وصلت الى مصر الحملة السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ثم حدثت معركة المنصورة في السنة التالية عام (١٢٥٠) وقد توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب خلال المعركة فكتمت زوجته (شجرة الدر) خبر وفاته وأرسلت إلى ابنه (توران شاه) للحضور من بلاد الشام ووراثة عرش أبيه فيها.

ثم تسارع شريط الأحداث الداخلية في مصر فاغتيل (توران شاه) عام (١٢٥٠) وتولت شجرة الدر عرش مصر وتزوجت من عز الدين أيبك كبير مقدمي المماليك البحرية

ومعنى ذلك أن عرش مصر قد انتقل إلى المماليك الذين كانوا يعملون في خدمة الأيوبيين وأصبحت البلاد الاسلامية منقسمة في حكمها بين المماليك في مصر والأيوبيين في بلاد الشام والعراق.

استمر عز الدين أيبك في حكم مصر (١٢٥٠ - ١٢٥٧) حيث حصل خلاف عائلي بينه وبين زوجته شجرة الدر فدبرت مؤامرة لاغتياله فقتل عندما كان يستحم داخل منزلها ثم قتلت هي الاخرى بعده بقليل واسند عرش مصر الى (علي) ابن عز الدين أيبك وكان صغيرا لا يتجاوز عمره خمسة عشر عاما وعين (قطز) وصيا عليه وفي هذه الاثناء وصل جيش المغول بقيادة (هولاكو) الى بغداد فدمرها وقضى على سكانها ثم زحف الى حلب ومنها الى دمشق وقد استسلمت جميع مدن بلاد الشام له، ثم أرسل (هولاكو) الى (قطز) يأمره بالقدوم إلى دمشق لتقديم الولاء والطاعة.

٣ - الموقف العام قبل المعركة الفاصلة:

أ - الموقف الاسلامي:

بعد وفاة صلاح الدين بسنتين فقط تمكن أخوه العادل من السيطرة على مقاليد الامور والمحافظة على وحدة العالم الاسلامي وقد تهيأ لمواجهة الحملة الخامسة ولكنه توفي عام ١١١٨ والفرنجة لا يزالون في مصر، ورغم تنازع أبنائه من بعده الا انهم نجحوا في طردهم من مصر.

ان تقسيم المملكة الايوبية بين أبناء العادل الثلاثة قد ساعد على تمزيق الوحدة الاسلامية وتشتيت جهدها واضعاف امكانياتها وشجع الفرنجة على الاستمرار في ارسال الحملات لغزوها كما حدث في الحملة السادسة (١٢٢٩) حيث استغل الامبراطور الالماني (فردريك الثاني) المنازعات بين الايوبيين فعقد اتفاقا مع الكامل تم بموجبه تسليم القدس للافرنج مع احتفاظ المسلمين بحرية العبادة في أماكنهم المقدسة كما شجع الدولة الخوارزمية على تهديد الاطراف الشرقية في منطقة الموصل وحلب ودمشق.

ونتيجة للصراع الذي بقي مستمرا بين الامراء الايوبيين فقد استغل مماليكهم هذه الأوضاع وخاصة بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب عام (١٩٥٠) فقتلوا ولده (توران شاه) واستولوا على السلطة في مصر وحصلوا على شرعية الحكم من المستعصم[١] آخر الخلفاء العباسيين وهكذا أصبح الجناح الغربي للدولة الاسلامية منفصلا كل الانفصال عن جناحها الشرقي كما أخذ الايوبيون والمماليك يتسابقون الى المعسكر الفرنجي يخطبون ودهم ويترامون على أعتابهم وأخذ كل طرف منهم يبذل غاية كرمه في تقديم (بيت المقدس) هدية للفرنجة مقابل تعهدهم بمناصرته على الطرف الآخر ولذلك فعندما اجتاحت جحافل المغول بلاد العراق ودمرت عاصمة الخلافة فيها لم يقو الايوبيون ولا المماليك على تقديم أي عون أو مساعدة لها.

---

(١) بسام العسلي: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، ص (١٨٥) واسلاماة لباكثير، ص (١٣٩ - ١٥٢).

ب - الموقف المغولي:

استطاع المغول بقيادة جنكيز خان المتوفي عام ١٢٢٧ السيطرة على جميع البلاد ضمن المناطق الممتدة من كوريا شرقا الى بلاد فارس غربا ومن سيبيريا شمالا الى المحيط الهندي جنوبا كما استطاعوا في عهد خليفته (أوكتاي) من اجتياح روسيا ومعظم دول أوروبا شمالا وبلاد فارس جنوبا وعندما توفي عام (١٢٤١) ورث (منكو) عرش المغول فأوعز الى أخيه هولاكو بالتوجه نحو بغداد وقد نجح هولاكو في تدمير بغداد والقضاء على الخلافة الاسلامية فيها كما نجح في احتلال دمشق وحلب وأرسل الى السلطان (قطز) في مصر يطلب منه القدوم الى الشام لتقديم الولاء والطاعة له فيها وقبل أن يعلم هولاكو مصير الرسل الذين أرسلهم الى مصر جاءته الاخبار بوفاة شقيقه منكو وحصول نزاع على السلطة فقفل عائدا الى بلاده لتدبير شؤون الحكم فيها تاركا لقائده (كتبغا) فرصة التقدم لاحتلال مصر وتدمير جيشها.

ج - موقف الفرنجة:

يمكن القول أن الموقف العام للفرنجة قبل معركة عين جالوت قد تميز بما يلي:

١ - توتر شديد بين الكنيستين الشرقية والغربية بسبب توجه الحملة الفرنجية الرابعة عام ١٢٠٤ الى القسطنطينية واحراقها بدلا من توجهها الى بلاد الشام ومصر[١].

٢ - استغلال المنازعات بين الأمراء الايوبيين لكسب المزيد من الاراضي كما حصل مع امبراطور المانيا فردريك الثاني عندما تفاوض مع الملك الكامل[٢] وحصل على بيت المقدس بدون قتال مستغلا بذلك العلاقات السيئة بين الكامل واخوانه.

٣ - محاولات التقرب المستمرة من المغول وخاصة بعد قضائهم على الدولة الخوارزمية الاسلامية وتدميرهم بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية وقد ظهر هذا التقارب واضحا في زواج أمراء المغول من أميرات افرنجيات مثل (طقز خاتون) زوجة هولاكو وكذلك زواج هولاكو من ابنة الامبراطور البيزنطي[٣] ووجود بعض القادة المغول ممن اعتنقوا المسيحية مثل (كتبغا) مقدم الجيش المغولي كما ظهر ذلك ايضا في تحويل قصور الخلافة في بغداد إلى كنائس وفي عدم التعرض للكنائس والاديرة المسيحية بسوء في جميع المدن التي اجتاحها المغول، وكذلك في العلاقة الحميمة التي كانت قائمة بين المغول وكل من هيثوم ملك أرمينيا وبوهيمند السادس أمير أنطاكيا حيث شوهدا يركبان الى جانب (كتبغا) أثناء دخوله دمشق.

---

(١) الحركة الصليبية، الجزء الثاني، ص (٩٣٣).

(٢) السلوك، الجزء الاول، ص ٢٣٠؛ المختصر في أخبار البشر، الجزء الثالث، ص (١٤٧).

(٣) قدري القلعجي: كتاب صلاح الدين الايوبي، ص (٥٧٠).

أساليب القتال وتنظيم القوات لدى الطرفين:

أ - المغـــول:

اعتمد المغول في تنظيم قواتهم على الفرسان فقط لسـرعة حـركتهم حيث قطع جيشهم من منغوليا الى فلسطين ما يزيد على أربعة آلاف ميل، ولم يكن عنصر المشاة موجودا في تنظيمهم ولذلك فقد وصفت معاركهم بالتعرض والهجوم ومحاصرة المـدن وتدميرها واتصف فرسانهم بالخفة وسرعة الحركة وكانت أسلحتهم خفيفة (كالسيف والرمح والقوس) ولم يهتموا بالدروع واللباس الثقيل، وينقسم فرسانهم الى قسمين[1]:

(١) **الأول**: فرق حاملي السهام وتطلق سهامها في بداية القتال بشكل كثيف كبداية للاشتباك الحاسم وتقوم بما يشبه دور قاعدة الاسناد في العصر الحديث.

(٢) **الثـاني**: فرق حاملي السيوف والرماح وتقوم بالهجوم الخاطف السريع وقد تميزت أعمال المغول الحربية بشكل عام بالوحشية وابادة الحياة ابادة كاملة فوق سطح الأرض كما كانت جيوشهم كثيرة العدد تتمكن من العمل على محاور مستقلة ومتباعدة دون الحاجة الى اسناد بعضها البعض فلقد كانت لهم جيوش تعمل بشكل مستقل في أوروبا بقيادة (بيجو) كما كانت لهم جيوش تعمل في آسيا بقيادة (هولاكو).

اعتمد المغول في حروبهم على نقل الرعب ونشر الفزع بين الأمم التي يهاجمونها قبل أن تنتقل اليها جيوشهم وهو أسلوب غير مباشر في الحروب العصرية يساعد على تحقيق الأهداف عن طريق تدمير الروح القتالية وتحطيم المعنـويات ولكن الاسـاليب الوحشية في القتال الجماعي والحرق وتدمير الحضارة وجميع مقومات الحياة البشرية التي مارسها المغول في حروبهم قد طبعتهم بطابع الهمجية وخلقت عند الشعوب ردة الفعل العنيفة في مواجهتهم.

لقد اشتملت قيادة المغول على مستشارين من الامم التي كانوا يحتلونها وكانوا يأخذون بآرائهم فيما يتعلق بأساليب قتالهم ومواقع ضعفها ولكن الدبلوماسية والحنكة السياسية والتسامح لم يكن لها وجود عند المغول فضيعوا في معركة واحد كل ما اكتسبوه خلال سنوات طويلة.

لقد عرف المغول كيف يهاجمون وأجادوا في ذلك كل الاجادة وانتصروا على غيرهم من الامم والشعوب وقد وصفهم (ليدل هارت) بقوله: (ان اتساع مسرح العمليات وحركة القطعات الواسعة والاستخدام الاريب للمباغتة جعلت معارك هؤلاء الآسيويين المغول تنافس جميع المعارك التي يذكرها التاريخ ان لم تتفوق عليها[2].

---

(١) صبحي عبد الحميد: معارك العرب الحاسمة، ص (١٣٦).

(٢) ايريك موررير/ تعريب اكرم الديري والمقدم هيثم الايوبي، كتاب ليدل هارت مدخل الى التاريخ العسكري، ص (٣١٨).

ولكن المغول قد جهلوا الاساليب الدفاعية حيث عرفتها الامم الاخرى وافتقر الجيش المغولي الى عنصر المشاة الذي يصلح للاغراض الدفاعية وقد كانت هذه نقطة ضعفهم القاتلة في عين جالوت.

ب - الجيش الاسلامي:

كانت منطقة المشرق الاسلامي قد شهدت قبل الهجمة المغولية في منتصف القرن الثالث عشر هجمة صليبية في مطلع القرن الثاني عشر وعلى الرغم من الانتصارات الساحقة التي حققها الفرنجة خلال الربع الاول من القرن الثاني عشر الا أن المسلمين قد تمكنوا من احتوائهم وتحقيق نصر ساحق ضدهم في حطين عام (١١٨٧) واقتصر وجودهم بعد ذلك على شريط ساحلي ضيق بين عكا وصور يتسع حينا ويضيق حينا آخر حسب ضعف الدولة الاسلامية وقوتها ثم استمرت الحملات الفرنجية بعد ذلك في تدفقها الى المنطقة الاسلامية وخاصة ضد مصر فكانت الحملات (الخامسة ١٢١٨ - ١٢٢٤)، و (السادسة ١٢٢٨ - ١٢٣٠)، و (السابعة ١٢٤٩ - ١٢٥٠) موجهة كلها نحو مصر وقد نجح المصريون في مواجهتها لوحدهم حينا وبمساعدة أشقائهم في بلاد الشام حينا آخر.

لقد عرف المصريون منذ عهد صلاح الدين أساليب التعرض والهجوم والمباغتة والخدعة وحرب الكمائن والتطويق والهجوم أثناء الزحف كما عرفوا بعد عهد صلاح الدين كيف يدافعون ضد الهجمات الافرنجية المعادية التي استمرت بعد وفاته حتى عام ١٢٥٠ عندما أخذ المغول يتدفقون من الشرق ويجتاحون مناطق أفغانستان وايران ولئن كانت الاوضاع الداخلية في مصر والخارجية في بلاد الشام وفلسطين لا تساعد على تحريك القوات المصرية الى بغداد عام ١٢٥٨ بسبب النزاع على عرش السلطنة في مصر بين المماليك من جهة والخلاف بين الدولتين الايوبية والمملوكية في بلاد الشام ومصر من جهة أخرى الا ان وصول السلطان قطز الى عرش مصر عام ١٢٥٩[1] ونجاحه في ترتيب أوضاعها الداخلية وتهيئة الأمة للحرب، واعلان الجهاد المقدس ضد المغول وما عهد عنه من حنكة سياسية سابقة وكراهية شديدة للمغول ومعرفة بأساليبهم القتالية كل ذلك قد ساعده على الانتقام لقومه سلاطين الدولة الخوارزمية والانتصار لعقيدته الاسلامية التي دمر التتار عاصمتها في بغداد.

(فالسلطان قطز) هو ابن أخت السلطان جلال الدين الخوارزمي من أصل تركماني واسمه (محمود بن معدود) ولما حلت النكبة بدولة خوارزم وأمعن المغول في قتل ملوكهم نجا محمود وكان طفلا صغيرا فوقع بيد أحد تجار الرقيق حيث سماه (قطز) وباعه في البلاد الشامية وقد التحق في خدمة عز الدين أيبك التركماني الذي كان يعمل مقدما عند الصالح نجم الدين أيوب[2].

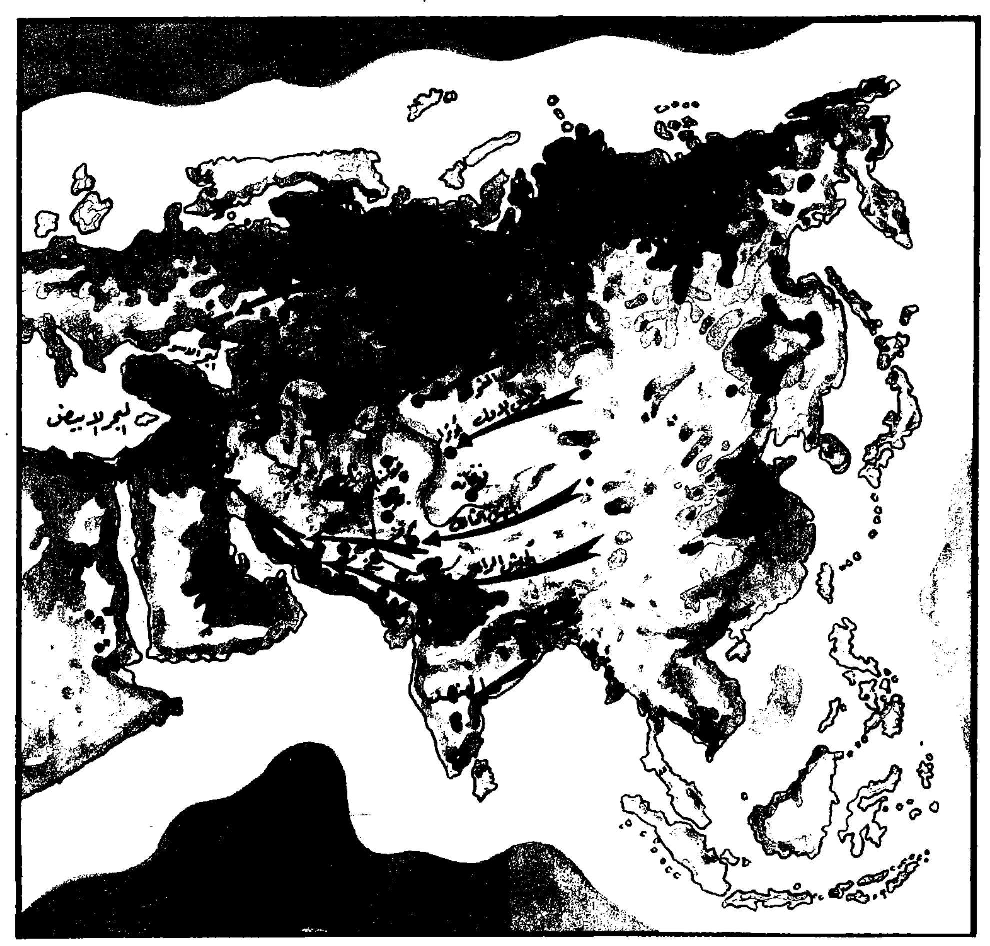
---

(١) أبو الفداء: المختصر. الجزء الثالث، ص ٢٠٥ - ٢١٠؛ وكذلك المقريزي: السلوك. الجزء الأول، ص ٤١٥ - ٤٢٠

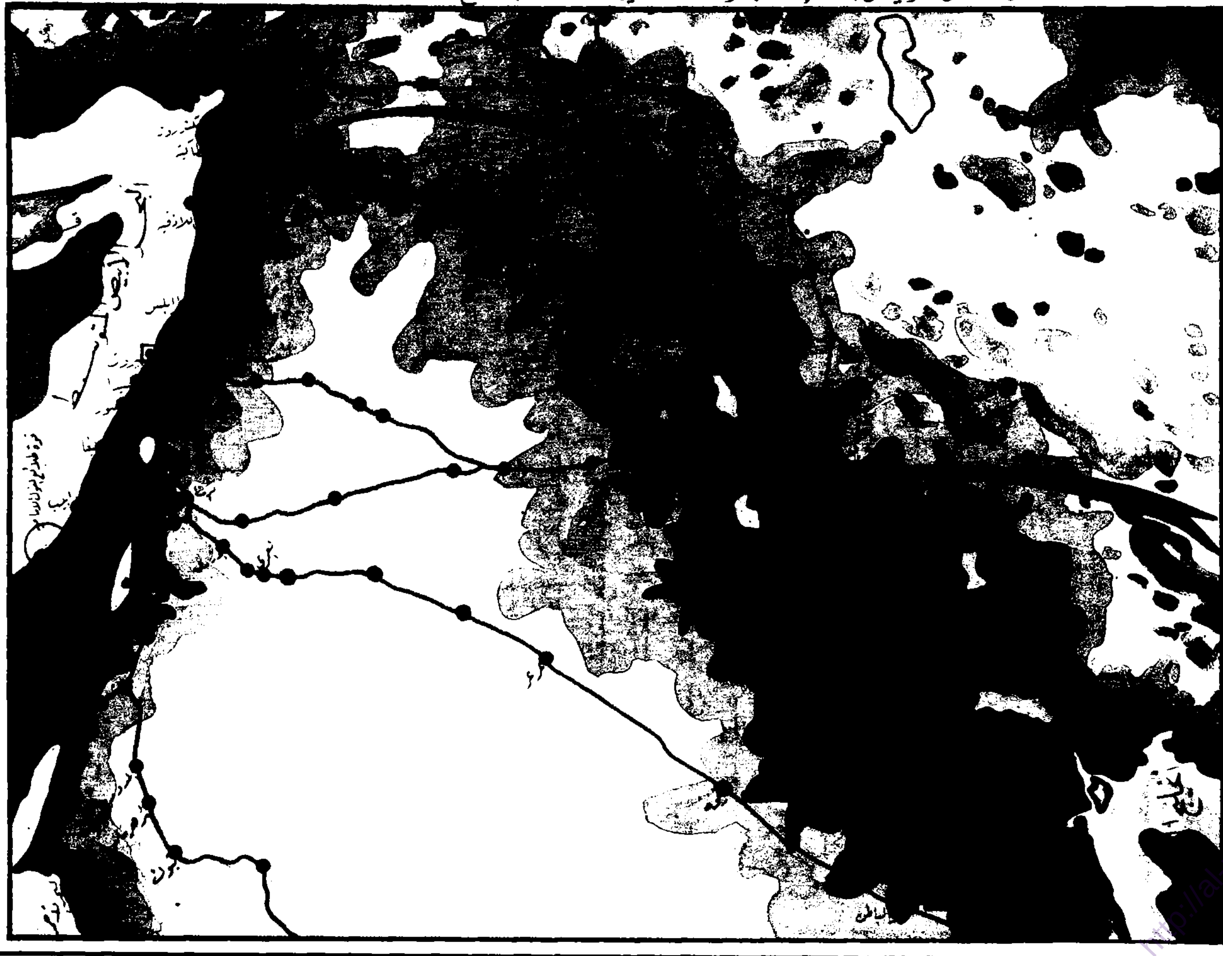
(٢) صبحي عبد الحميد: معارك العرب الحاسمة، ص (١٣٦).

الفصل الثاني

عمليات المغول في آسيا وتدميرهم بغداد



حركة الجيش المغولي من بغداد إلى حلب واحتشاده في منطقة البقاع



كان الجيش الاسلامي المصري كان يتألف في تنظيمه من المشاة والفرسان وكان معظم فرسانه في عهد الصالح نجم الدين أيوب من المماليك والتركمان والجراكسة الذين احترفوا الفروسية واتصفوا بالشجاعة والاقدام، ولذلك فقد كان هذا الجيش متكاملا الى حد ما بفرسانه ومشاته ولديه من الخبرة القتالية الطويلة ما جعلته مؤهلا لمواجهة الصعاب وتخطيها وقد التحق بهذا الجيش جميع الأمراء والجنود الهاربين الى مصر من وجه المغول من جميع الديار الاسلامية.

٥ ـ التحضيرات للمعركة:

أ ـ المغول:

بعد أن نجح المغول في تدمير عاصمة الخلافة الاسلامية بغداد واستولوا على الموصل وحلب ودمشق لم يبق أمامهم من قوة عسكرية سوى مصر ولذلك فقد حشدوا جيشهم في منطقة (البقاع) قرب بعلبك وأرسلوا قوة استطلاعية اخترقت فلسطين ووصلت الى (غزة) وكان قوامها (ألف جندي) وعلى رأسها (بيدرا) ثم أرسل قائد المغول (هولاكو) الى السلطان قطز في مصر يأمره بالمثول لديه لتقديم الولاء والطاعة وقد جاء في رسالة هولاكو: (من ملك الملوك شرقا وغربا القان الاعظم يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الاعمال أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم وأسلموا الينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن لا نرحم من بكى ولا نرق لمن شكا ولقد سمعتم أننا فتحنا البلاد وطهرنا الارض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب، فأي أرض تأويكم وأي طريق تنجيكم وأي بلاد تحميكم، فما لكم من سيوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، فانكم أكلتم الحرام وخنتم العهود والايمان وفشا فيكم العقوق والعصيان فأبشروا بالمذلة والهوان، فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم، فلا تضلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترمي نحوكم شررها، وتدعون منا بأعظم داهية وتصبح بلادكم منكم خالية، فلقد أنصفناكم اذ راسلناكم وأيقظناكم اذا حذرناكم فما بقي لنا مقصد سواكم، والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الاعلى)(١).

يتضح من رسالة هولاكو أنه استخدم أسلوب الحرب النفسية للتأثير على معنويات خصومه وتحطيم ارادة القتال لديهم فهو يستعرض أمامهم قوته وكثرة عدد جيشه ويزعم أنه على الحق وأن اعداءه على الباطل فجنوده هم جنود الله الذين خلقهم من سخطه وسلطهم على عباده الظالمين فالنهاية معروفة ولا تنفعهم المواجهة ولا الهرب وليس لهم إلا

(١) محمود شيت خطاب: بين العقيدة والقيادة، ص (٣٣٣).

المثول بين يديه لتقديم الولاء والطاعة.

وبعد أن أرسل هولاكو رسالته الى سلطان مصر جاءته الاخبار بوفاة شقيقه (منكو) وظهور خلاف بين أخوانه على عرش المغول فاضطر للعودة الى منغوليا تاركا بعده مقدم جيشه (كتبغا) نائبا عاما عنه وعهد اليه بمواصلة التقدم نحو مصر.

ب - الجيش الاسلامي المصري:

تسلم السلطان قطز مقاليد الامور في مصر في شهر تشرين ثاني عام (١٢٥٩) ميلادية[١] فعمل على ترتيب الاوضاع الداخلية وهيأ الامة للحرب وأعلن النفير العام ثم دعا أئمة المسلمين واستفتاهم في جميع الاحوال من الشعب فأصدر شيخ الاسلام في ذلك الوقت (عز الدين بن عبد السلام) بأنه: (إذا طرق العدو البلاد وجب على الناس الجهاد وجاز للسلطان أن يأخذ من أموال التجار وأعيان البلد ما يستعين به على تجهيز المعسكر لدفع العدو لكن بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء من المال والسلاح..الخ).

فبلغ ما جمعه من الاموال (ستماية ألف دينار) وبعد ان أكمل التحضيرات اللازمة خرج السلطان قطز الى معسكر الصالحية (كمنطقة حشد) تكاملت فيها جميع القوات وكان بصحبته من الملوك الايوبيين الملك المنصور وحسب الخطة التي اتخذها السلطان قطز في مواجهة المغول خارج الديار المصرية فقد غادر معسكر حشده في الصالحية في (مطلع شهر رمضان عام ٦٥٨ هجرية آب ١٢٦٠ ميلادية) وجعل على مقدمته الظاهر بيبرس وكلفه بواجب الاستطلاع البعيد كما أوكل اليه مهمة التوجه أمام الجيش الى غزة وتدمير قوة الاستطلاع المعادية فيها.

لقد أراد السلطان أن يكسب الجولة الاولى في الصراع مع التتار وذلك ادراكا منه لما لهذه الجولة من أثر كبير في نفوس أصحابه وأعدائه على السواء فمعركة غزة بين قوتي الاستطلاع المتقدمتين كانت في نظر السلطان بمثابة معركة المعنويات التي ان فاز بها ستكون احدى مقدمات النصر في المعركة الفاصلة مع المغول.

لقد وصل الظاهر بيبرس الى غزة وفاجأ القوة المعادية فيها وانتصر عليها في معركة خاطفة ثم واصل الجيش المصري تقدمه شمالا مع الساحل نحو عكا.

٦ - قـوات الطـرفين:

أ - المغــول:

ذكر (سعيد برجاوي) في كتابه «الحروب الصليبية في المشرق»[٢] أن هولاكو قد زحف على بغداد بجحفل عظيم يبلغ (المائتي ألف) محارب وقد جاء في رسالة هولاكو التي بعثها الى السلطان قطز بأن عدد الجيش المغولي كالرمال وذلك مبالغة منه في كثرة عدده.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية. الجزء الثالث عشر، ص (٢١٥ - ٢٢٠).

(٢) سعيد أحمد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص (٥٩٠) نقلا عن كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني، مجلد ٢، ج ١، ص (٢٦٨ - ٢٧٠).

وجيش هولاكو كله من الفرسان وليس في تنظيم جيشهم عنصر المشاة ولذلك فهو يمتاز بقابلية الحركة والسرعة ويتقن عمليات التعرض والهجوم ولكن افتقاره الى عنصر المشاة قد أفقده القدرة على ممارسة الاساليب الدفاعية أما أسلحته فهي من النوع الخفيف الذي يسهل حمله ويحسن استخدامه وتشمل السيف والرمح والقوس ولم تتوفر لديهم الدروع أو المهمات الثقيلة.

ب - المسلمون:

ذكر (صبحي عبد الحميد) في كتابه «معارك العرب الحاسمة»[1] أن عدد الجيش المصري الذي حشده السلطان قطز بلغ (أربعماية ألف) مقاتل، وليس من سبيل الى تمحيص مثل هذه الارقام الكبيرة ولكن امكانية الشك في صحتها واردة على أية حال.

فمن النظرة الاولى على طبيعة ميدان المعركة ومدى استيعابه للقوات يتبين أن هذه الارقام خيالية ومبالغ فيها الى حد كبير وتمتاز القوات المصرية بأنها تضم عناصر المشاة والفرسان وأن لديها تجربة قتالية طويلة ومتواصلة وأنها تتقن جميع فنون القتال.

ويمكن أن نضيف الى قوات المغول ما انضم اليها من القوات الفرنجية بقيادة ملك أرمينيا وأمير انطاكيا اللذين تحالفا مع المغول وظهرا في دمشق يركبان الى جانب (كتبغا) عند دخوله المدينة.

كما يمكن أن نضيف الى القوات المصرية ما التجأ اليها من عسكر الشام الهاربين من وجه المغول غربا والمماليك جنودا وأمراء مثل ملك حماة الايوبي والظاهر بيبرس المملوكي وغيرهم كثير.

أما عامل المعنويات لدى الطرفين فهو عند المغول بدرجة ممتازة بسبب الانتصارات المتتالية التي حققوها خلال رحلة (الاربعة آلاف ميل) من منغوليا الى بلاد الشام.

ولم تكن معنويات الجيش الاسلامي بنفس الدرجة في بادىء الامر ولكن القيادة المصرية المتمثلة بالسلطان قطز بما كان يملأ نفسه من حب للثأر وغيرة على الاسلام قد شحنتهم بالجرعات المتواصلة التي تحثهم على الجهاد وتطالبهم بحماية الوطن، ولذلك فقد كانت مواجهته خارج الديار المصرية واهتمامه بمعركة الطلائع الامامية في غزة رافدين كبيرين من روافد المعنوية وتعزيز الروح القتالية بين جنوده.

وللأمانة التاريخية فقد خاض المصريون بقيادة السلطان قطز المملوكي معركة الامة الاسلامية بشرف وحافظوا على هويتها الدينية والقومية بعد أن كانت هذه الهوية معرضة للاندثار والزوال.

---

(١) صبحي عبد الحميد: معارك العرب الحاسمة، ص (١٣٦).


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الثالث

٧ - الرؤيا الاستراتيجية العامة:

أ - المغـــول:

كانت الرؤيا الاستراتيجية عند (هولاكو) متمثلة في مواصلة التقدم لاحتلال مصر وربما شمال افريقيا حتى المحيط الاطلسي فقد نجح في تدمير عاصمة الخلافة الاسلامية بغداد كما نجح أيضا في احتلال شمال العراق وبلاد الشام، ولكي يتمكن من تحقيق هدفه فقد حشد قواته في سهل البقاع قرب بعلبك وأرسل بقوة استطلاع أمامية عبرت فلسطين ووصلت الى غزة حيث تمركزت فيها، ان مسؤولية هذه القوة تتلخص في تمرير المعلومات عن تحركات الجيش المصري وتشكل قاعدة انطلاق أمامية للمغول نحو مصر.

وقبل أن يشرع (هولاكو) في تنفيذ هجومه المباشر فقد لجأ الى استخدام الاساليب غير المباشرة لتحقيق الاهداف حيث أرسل وفدا الى القيادة المصرية يحمل رسالة يتهددهم فيها ويتوعدهم ويأمرهم بالمثول بين يديه لتقديم الولاء والطاعة.

وبينما كان (هولاكو) ينتظر عودة الوفد جاءته الاخبار بوفاة أخيه (منكو) وحصول نزاع حول العرش بين اخوانه فاضطر الى العودة الى منغوليا تاركا تنفيذ المهمة الى نائبه (كتبغا) وعلى الرغم من شجاعة هذا النائب وقدرته العسكرية الا ان غياب القائد الاعلى عن ميدان المعركة ترك في قيادته فراغا كبيرا وأدى الى الارتباك والفشل الذريع.

ب - المسلمـــون:

تضمنت الرؤيا الاستراتيجية للسلطان قطز:

(١) ترتيب الاوضاع الداخلية وتهيئة الامة للحرب.

(٢) الخروج على نظرية الدفاع السلبي داخل أسوار القاهرة والتي كانت شائعة طيلة الحملات الفرنجية (الخامسة، السادسة، والسابعة) واعتماد ما يسمى حديثا بنظرية (الحرب الوقائية) التي تقول: (ان التعرض أو الهجوم هو أفضل أنواع الدفاع) وهذا يساعد في رفع المعنويات كما يجنب البلاد ويلات الحرب.

(٣) تأمين حركة القوات ضمن مسرح العمليات في فلسطين ولما كانت الطريق

الساحلية هي أفضل الطرق من الناحية الامنية لذا فـان استخدامهـا يقتضي التنسيق مع مملكة عكا الفرنجية.

(٤) عقد معاهدة صداقة وحسن جوار مع مملكة عكا تتضمن تزويد الجيش الاسلامي بما يحتاجه من النواحي الادارية وتتضمن هذه المعاهدة عدم انحياز الفرنجة الى جانب المغول في المعركة القادمة.

(٥) استخدام ما يعرف بالمفهوم العسكري الحديث (أسلوب الحركة على الخـطوط الخارجية) لتهديد مؤخرات العدو حيث لا يستطيع الجيش المغولي تحقيق هدفه الرئيسي بالتقدم نحو مصر بينما القوات المصرية موجودة في عكا.

(٦) الاهتمام بعامل المعنويات لذلك فقد أوكل السلطان قطز الى الظاهر بيبرس مهمة الاشتباك مع قوات الاستطلاع المغولية في غزة لما لهذه المعركة من أثر كبير على معنويات الجيشين المتحاربين.

(٧) يشير بعض المحللين العسكريين الى وجود علاقة بين السلطان قطز وبين أقطاب الثورة الاهلية[1] التي حدثت في دمشق خلال فترة تحرك القوات المغولية باتجاه فلسطين مدللين على مدى اهتمام السلطان بالعامل الديموغرافي السكاني لما له من أثر في تشتيت جهد العدو وارباكه وضرب مؤخراته وخطوط تموينه، وسواء جاءت ثورة دمشق بتخطيط السلطان أو كانت وليدة الصدفة فقد حدثت هذه الثورة الاهلية في وقتها المطلوب واضطرت المغول الى دفع قسم لا يستهان به من قواتهم الى دمشق.

(٨) اطلاعه على أساليب قتال العدو ومعرفة تنظيم قواته واختياره ميدان المعـركة بحيث لا يخدم غرض العدو وحركة قواته.

٨ ـ الخطة الميدانية للطرفين:

أ ـ المغــول:

اعتمد المغول في خططهم العسكرية على تبني نظرية الحرب الصاعقة المهد لها برماية كثيفة من حاملي السهام وهجمات (جس النبض) لمعرفة نقاط الضعف، وفي هذا المعنى يقول (صبحي عبد الحميد): «تعتمد خطة المغول التي بـرعوا فيهـا في جميع حروبهم على تجنب الاشتباك الواسع مع الخصم في البدايـة حيث يقومـون بهجمات مختلفة لاكتشاف نقاط الضعف في صفوف الخصم ثم يقومون بحشد قواتهم الرئيسية أمام نقطة الضعف ويشنون هجومهم الكثيف عليها ويكون هذا الهجوم عادة مسبوقا بقصف كثيف من قبل حاملي السهام حيث يختل توازن الخصم»[2]

(١) بسام العسلي: الايام الحاسمة في الحروب الصليبية، ص (١٩٢).
(٢) صبحي عبد الحميد: معارك العرب الحاسمة، ص (١٣٧ ـ ١٣٨).

أما (محمود شيت خطاب)[1] فيرى أن المغول اعتمدوا في عين جالوت وفي جميع معاركهم السابقة لها على نظرية الحرب الصاعقة التي تعتمد على سرعة حركة الخيالة حيث يقومون باختراق صفوف عدوهم من أحد الاماكن الضعيفة ثم يتم بعد ذلك تطويقهم وابادتهم.

ويضيف بسام العسلي[2] أن جيش المغول كان يفتقر الى الكشافة أثناء حركته من منطقة الحشد في سهل البقاع الى ميدان المعركة حيث لم يكن يعلم عند وصوله الى عين جالوت أن جيش المسلمين قد أصبح قريبا منه.

ب - المسلمون:

اعتمدت خطة السلطان على اختيار مناسب لميدان المعركة واستغلال جيد للارض وتطبيق متقن ومتعدد لفنون القتال التي كان يعرفها فقد اختار ميدانا للمعركة تتوفر فيه الارض المناسبة لعمل المشاة كما تتوفر فيه الأماكن التي تساعد على عمل الكمائن كما استخدم وسائل الخدعة والتضليل والتراجع والتثبيت ثم الاحتواء والتطويق والقيام بالهجوم المعاكس الناجح.

وكان قد كلف قائد مقدمته (بيبرس) بالظهور أمام العدو والاشتباك غير الحاسم معه ثم التراجع أمامه الى مناطق مناسبة للتطويق والابادة كما قسم قواته الى ميمنة وميسرة وقلب، وجعل خلف كل جناح احتياطا من الفرسان لكي يخففوا س حدة هجوم العدو ويقوموا بالهجوم المعاكس ضده كما وضع احتياطا عاما من الفرسان جعله تحت امرته وكان السلطان في القلب وبيبرس على الجناح الايسر والأمير (بهادر) على الجناح الأيمن[1].

٩ - الاشتباك الحاسم:

بدأت أحداث المعركة باشتباك غير حاسم نفذه الظاهر بيبرس بأمر من السلطان قطز تلاه هجوم كاسح من قبل المغول وتراجع منظم من قبل بيبرس نحو الجناح الايسر للمسلمين.

ثم عمل المغول على تطوير هجومهم على الجناح الايسر للمسلمين وهم يعتقدون أن اختراقهم لهذا الجناح سيحسم القتال لصالحهم وما أن توغلوا قليلاً حتى فاجأتهم كمائن الفرسان المعدة خصيصا لهذه الغاية حيث تم احتواء هذا الهجوم وتطويقه من قبل المسلمين ثم نفذت خطة الهجوم المعاكس كما وضعت بقيادة السلطان قطز حيث نجح الهجوم وقتل كتبغا والقسم الاكبر من قواته المحصورة بينما هرب الباقون نحو دمشق وبعلبك.

---

(١) محمود شيت خطاب: بين العقيدة والقيادة، ص (٣٤١).

(٢) بسام العسلي: الايام الحاسمة في الحروب الصليبية، ص (١٩٤).

يتضح من الخطة التي نفذها الجيش الاسلامي في عين جالوت أنه قد تم ممارسة وتنفيذ نوعين من أنواع الدفاع هما:

أ ـ الدفاع الثابت في المرتفعات المسيطرة على الجناح الأيمن الشرقي وكانت الأرض مناسبة لتبني هذا الشكل من الدفاع كما أن مستنقعات بيسان تؤمن الحماية الطبيعية اللازمة لهذا الجناح وتمنع العدو من الاقتراب منها أو الالتفاف حولها.

ب ـ الدفاع المتحرك على الجناح الغربي حيث تساعد طبيعة الأرض حركة الفرسان في هذه المنطقة كما كانت أطرافها الخلفية مناسبة لعمل الكمائن وتثبيت العدو.

لقد خاض السلطان قطز على المستوى الاستراتيجي حربا وقائية ضد المغول جنب الشعب المصري ويلاتها كما مارس فيها أساليب الاقتراب غير المباشر لتحقيق الاهداف وعمل على الخطوط الخارجية فضمن الامن اللازم لقواته وهدد بنفس الوقت مؤخرات العدو كما استغل جهوده السياسية في الاقتراب من مملكة عكا لخدمة المعركة الفاصلة فعمل على عزل الفرنجة عن المغول وضمن تقديم دعمهم الاداري لقواته.

وأما على المستوى الميداني فقد خاض معركة دفاع تعرضية استخدم فيها وسائل الخدعة والتضليل وطبق فيها أسلوب الدفاع بشكليه الثابت والمتحرك كما استخدم أسلوب الكمين والتراجع والاحتواء والتطويق والهجوم المعاكس ونجح في كل ذلك غاية النجاح.

١٠ ـ المطاردة واستثمار الفوز:

بعد الانتصار الكبير الذي حققه السلطان في عين جالوت فقد أوكل للظاهر بيبرس مهمة مطاردة فلول المغول المتجهة نحو دمشق وبعلبك وقد نفذ الظاهر بيبرس خطة المطاردة بنجاح فوصل الى حلب شمالا وأخرج المغول من جميع البلاد الشامية.

ودخل السلطان قطز مدينة دمشق واستقبل فيها استقبالا شعبيا حافلا باعتباره حامي الاسلام ومنقذ الوطن من شرور المغول وأطماعهم وهكذا تم توحيد بلاد الشام ومصر تحت قيادة المماليك الذين استمر حكمهم حتى مطلع القرن السادس عشر.



(١) قدري القلعجي: كتاب صلاح الدين الأيوبي، ص (٥٧٨).

الفصل الرابع

١١ ـ الدروس والعبر:

أ ـ ان أهمية معركة عين جالوت بشكل عام تكمن في كونها احدى المعارك التاريخية الفاصلة وهي بالنسبة للعرب المسلمين بشكل خاص أعظم المعارك الاسلامية الفاصلة على الاطلاق، وتكتسب هذه الاهمية بسبب درجة خطورتها على وجود الامة مقارنة مع غيرها من المعارك الفاصلة الاخرى، فالمغول أو التتار هم احدى الامم المتوحشة التي لا تدرك معنى الحياة الانسانية أو تقدر قيمتها.

لقد أبادوا سكان بغداد بشكل جماعي دون أن يميزوا بين الرجال والنساء أو الشيوخ والاطفال كما دمروا المدينة وأزالوا كل ما فيها من مظاهر الحضارة والتطور كما قذفوا بكتبها ورسائلها العلمية في نهر دجلة، كان هذا شأنهم حيثما حلوا وأينما وجدوا.

وليس هذا القول عن المغول من قبيل التجني عليهم أو الافراط والمبالغة في تصوير فظاعتهم ووحشيتهم فلقد عبروا عن أنفسهم بأفعالهم وأقوالهم ولذلك فقد تميزت معركة (عين جالوت) عن مثيلاتها من المعارك الاسلامية الفاصلة باعتبارها معركة مصير الامة التي تقرر بقاءها أو زوالها.

ب ـ لقد تبين من خلال مناقشة الأوضاع المحلية في المنطقة أن الدولة الايوبية بعد وفاة صلاح الدين قد تقاسمها الامراء الايوبيون وتنازعوا عليها فتسببوا في تجزئتها واضعافها.

ولئن استطاع (العادل) شقيق صلاح الدين اعادة توحيدها خلال فترة حياته فلقد انقسمت وضعفت بعد وفاته مما أغرى أمراء الفرنجة بها وشجعهم على مفاوضة[١] (الكامل) بالتنازل لهم عن بيت المقدس حيث تم لهم ذلك بسهولة ويسر واستمرت هذه الحالة من الضعف والهوان حتى انتصف القرن الثالث عشر وتمكن الجيش المصري الذي كان يقوده المماليك من الانتصار على الفرنج في معركة (المنصورة) عام (١٢٥٠) ميلادية[٢].

ج ـ لم يكن وضع الفرنجة في فلسطين بعد معركة حطين أفضل حالا من الوضع العام للمسلمين فيها رغم الحملات المتكررة (الرابعة، الخامسة، السادسة والسابعة) حيث استطاع الناصر (داوود) أمير الكرك عام (١٢٣٩) ميلادية انتزاع بيت المقدس من أيدي الفرنجة مرة اخرى بعد أن كان عمه (الكامل) قد سلمها اليهم دون قتال عام (١٢٢٩) ميلادية ولهذا يمكن القول أن الفرنج خلال القرن الثالث

---

(١) هاملتون جب: صلاح الدين، ص (٢١٧) وكذلك ابن الوردي: تتمة المختصر، الجزء الثاني، ص (١٥٠) وكذلك ابن الاثير: الكامل، الجزء الثاني عشر، ص (٤٨٢).

(٢) المقريزي: السلوك، الجزء الاول، ص (٣٥٧).

عشر لم ينجحوا في استغلال الظروف التي كانت مواتية لهم رغم كثافة الحملات الاوروبية وتواليها على بلاد المشرق الاسلامي، كما أن وجهة هذه الحملات بشكل أساسي قد تحولت نحو مصر بدلا من بلاد الشام.

هـ ـ بعد وفاة الملك الصالح (نجم الدين أيوب) وعدم مقدرة ابنه (توران شاه) على الأخذ بزمام الامور وعدم حنكته في التعامل مع قادة جيشه من المماليك وأرملة والده المملوكية (شجرة الدر) لذلك فقد انتفض هؤلاء المماليك على سيدهم فقتلوه واستأثروا لأنفسهم بالحكم في مصر وبذلك انقسمت الدولة الاسلامية الى شرقية وغربية، أما الشرقية فتضم العراق وبلاد الشام وقد بقيت على حالتها من الانقسام والضعف[1] بسبب النزاعات المستمرة بين الامراء الايوبيين على عروشها.

وأما الغربية فتشمل مصر وقد ارتقى المماليك عرشها منذ عام (١٢٥٠) ميلادية.

د ـ خلال هذه الظروف والاوضاع السيئة التي كانت تسود الوطن العربي الاسلامي وصلت جحافل المغول الى بغداد حاضرة الخلافة الاسلامية في ذلك الوقت وكانت جيوشهم قبل ذلك قد اجتاحت قارة آسيا بكاملها ثم تجاوزتها الى أوروبا حيث كانت من الضخامة بحيث تستطيع العمل كجيوش مستقلة متباعدة دونما حاجة الى اتصال أو تنسيق.

وقد استطاع الجيش الذي كان يعمل في منطقة جنوب غرب قارة آسيا بقيادة (هولاكو) اجتياح (بغداد) عام (١٢٥٨) ميلادية[2] وتدميرها ثم واصل تقدمه غربا الى حلب ودمشق حيث وصلت طلائعه الامامية الى مدينة (غزة) في جنوب فلسطين.

و ـ أصبحت مصر بعد الاجتياح المغولي لبلاد الشام محط أنظار المسلمين فقد توجهوا اليها فارين بأنفسهم وكان الامراء الايوبيون في مقدمتهم ومنهم على سبيل المثال الملك (المنصور) صاحب حماة والذي تذكر الروايات التاريخية أنه اشترك مع جيش السلطان (قطز) في معركة عين جالوت[3].

ز ـ سعى المغول كما سعى الفرنجة الى التقارب والتنسيق فيما بينهما وقد تم تعزيز هذه المساعي وتوثيقها بالمصاهرة والنسب حيث تزوج (هولاكو) ابنة الامبراطور

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية. الجزء الثاني عشر، ص (٢١٥ ـ ٢٢٠) وكذلك ابن الوردي: تتمة المختصر. الجزء الثاني، ص (١٩٨ ـ ٢٠٠).

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة. الجزء السابع، ص (٥٠ ـ ٥٥).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية. الجزء الثالث عشر، ص (٢١٩ ـ ٢٢١).

البيزنطي (طقز خاتون)[1] كما اعتنق مقدم جيشه (كتبغا) الديانة النصرانية وقد بدت مظاهر هذا التقارب جلية في ظهور كل من (هيثيوم) ملك أرمينيا و (بوهيمند السادس) أمير أنطاكيا وهما يركبان الى جانب (كتبغا) أثناء دخوله مدينة دمشق.

ان مثل هذا التقارب بين المعسكرين المغولي والفرنجي يضاعف من درجة الخطر التي كانت تتهدد العالم الاسلامي في ذلك الوقت ولهذا فان الضرورة كانت تستدعي ظهور زعيم قادر على الأخذ بزمام الأمور بمقدار ما كانت تقتضي تكاتف جميع أبناء الامة الاسلامية معه والتفافهم من حوله، فكان السلطان (قطز) هو أفضل الامراء المماليك لممارسة هذا الدور الكبير.

ح - اشتملت استراتيجية السلطان (قطز) على توحيد كلمة الامة وتجاوز الخلافات الداخلية فيما بين المماليك من جهة وبينهم وبين الايوبيين من جهة أخرى وتوجيه جميع الجهود والامكانيات ضد الخطر الداهم الذي دق بوابة مصر الشرقية من مدينة (غزة) ولذلك فقد استنفر الامة للجهاد وحشد جهدها البشري والمادي واستقبل المسلمين الفارين من بلاد الشام أفرادا وأمراء استعدادا للمعركة الفاصلة مع جيوش التتار.

ط - كان المماليك يجيدون أعمال الفروسية وركوب الخيل كما كانوا يعملون فرسانا في جيوش الايوبيين ولما كانت نزعة الفروسية تعرضية لا دفاعية لذلك فقد رأى السلطان (قطز) مواجهة المغول خارج الديار المصرية وتطبيق نظرية الحرب الوقائية.

ي - أدرك السلطان أثر العامل النفسي المعنوي في نفوس الجيوش المتصارعة لذلك فقد أراد أن يجرد المغول من أحد أهم أسلحتهم الفتاكة في الحرب وأشدها فتكا بنفوس المحاربين وتأثيرا على ارادة القتال لديهم ولذلك فقد بدأ بخوض معركة المعنويات في غزة قبل خوضه المعركة الفاصلة في حطين وقد أولاها جل اهتمامه وكبير عنايته حيث استدعى مقدم جيشه (الظاهر بيبرس) وأسند اليه هذه المهمة ووضع تحت تصرفه جميع الفرسان ثم شحذ همته ووعده ومناه بالحصول على ما تصبو اليه نفسه من الامارة والولاية، وقد استطاع الظاهر بيبرس أن يفاجىء القوة الاستطلاعية المغولية في مدينة غزة ويشتتها ويقتل قائدها (بيدرا)، فارتفعت معنويات الفرسان الذين كان يقودهم بشكل خاص والجيش الاسلامي المتحرك خلفهم بشكل عام، وهكذا ربح السلطان (قطز) معركة المعنويات وانتزع زمام المبادرة من أيدي خصومه التتار منذ الجولة الاولى.

ومن الجدير بالذكر أن (خالد بن الوليد) كان يركز على (عامل المعنويات)

---

(١) قدري قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص (٥٧٠)

ويوليه الأهمية الكبرى في الحرب وكان يباشره بنفسه فكان يرخج للمبارزة ويدعو لها قائد العدو فيصرعه منذ الجولة الاولى ويستمر في رسم هذا المشهد امام الجيشين المتقابلين حتى يعجز قادة العدو عن الاستمرار في المبارزة ثم يباشر القتال بعد أن يكون قد ربح الجولة الاولى والهامة في ميدان القتال.

كما كان (خالد بن الوليد) يركز كثيرا على معارك الفرسان قبل عملية الاشتباك الحاسم لما لهذا السلاح من أثر كبير في تحقيق النصر.

ك - أدرك السلطان (قطز) أهمية مملكة عكا في المعركة الفاصلة ورأى أن المصلحة العليا تقتضي مهادنة هذه المملكة وعقد معاهدة صداقة معها لكي يفوت على المغول فرصة التحالف معها من جهة ويستفيد من خدماتها الادارية من جهة أخرى ولذلك فقد توجه الى مدينة عكا ووقع مع ملكها معاهدة التحالف في مواجهة الخطر المغولي الداهم وكان سعي السلطان لتوقيع معاهدة الصداقة مع مملكة عكا يدل على أهليته القيادية وحنكته السياسية البارعة.

ل - إذا كان السلطان (قطز) قد نجح في تأمين خطوطه الادارية وضمن الحركة الامنية لمؤخراته بتوقيعه معاهدة الصداقة مع مملكة عكا فقد سعى الى حرمان المغول من هذه الميزة حيث اتصل بالقاعدة الشعبية في بلاد الشام وحرك أقطاب الثورة في دمشق ضد مؤخرات القوات المغولية.

ويكون السلطان قد أدرك أهمية العامل السكاني (الديمغرافي) في التأثير على القوات المعادية في المعركة من خلال تشتيت جهدها وارباكها وضرب مؤخراتها وخطوط تموينها.

م - إن السلطان قطز بانتهاجه أسلوب الدفاع التعرضي خارج الديار المصرية وقتله رسل هولاكو وتعليقهم على باب (زويلة) وخروجه لملاقاة أعدائه في بلاد الشام ومحاولته انتزاع زمام المبادرة من أيديهم في معركة الطلائع الامامية في مدينة غزة وتقربه من مملكة عكا واسهامه في الثورة الاهلية ضد المغول في دمشق انما كان يحاول ان يهيء جميع الظروف لخدمة المعركة الفاصلة وهو بذلك قد انتهج نهج (صلاح الدين) ولكن بسرعة تتناسب مع درجة التهديد والفترة الزمنية المتيسرة.

ن - لقد أولى السلطان ميدان المعركة أهمية كبيرة لذلك فقد اختار الميدان الذي يلائمه ويخدم غرضه وخطته كما سعى الى استدراج عدوه اليه، وقد تميز ميدان المعركة في (عين جالوت) قرب مدينة (بيسان) بصناعته من الجهة الشرقية المطلة على وادي الاردن وكثرة مستنقعاته فيها بحيث تؤمن الجناح الايمن للجيش الاسلامي المتمركز على المرتفعات المسيطرة على المنطقة الشمالية الامامية كما يحرم العدو من فرصة الالتفاف حول هذا الجناح لعدم صلاحية هذه المنطقة لحركة الفرسان أو

المشاة لكثرة مستنقعاتها.

أما منطقة الجناح الايسر الغربية لميدان المعركة فقد كانت مناسبة لعمل الكمائن وحركة الفرسان لما يتوفر فيها من أودية وتضاريس تتفاوت بين الارتفاع والانخفاض، وقد استغل السلطان ميدان المعركة ورتب قواته بما يناسب طبيعة الارض فجعل المشاة على المرتفعات الشرقية بينما استغل الجناح الايمن بما يناسب أعمال الكمائن وحركات الفرسان كما ركز قواته الاحتياطية خلف التلال في أماكن مستورة للمبالغة في ايهام العدو بقلة عدد الجيش الاسلامي من جهة وتحقيق عامل المفاجأة من جهة أخرى.

وأوكل الى كوكبة من الفرسان أن تتقدم لمناوشة القوات المعادية واستدراجها الى منطقة الكمائن متظاهرة أمامها بالتراجع والهزيمة.

س ـ كان الجيش المصري مؤلفا من المشاة والفرسان بينما كان الجيش المغولي مؤلفا من الفرسان فقط وقد تعود المغول في حروبهم التي خاضوها على محاصرة المدن وخوض معارك تكون فيها القوات المعادية غير متكافئة مع قواتهم وقد استغلوا وحشيتهم فنشروا الرعب في جميع المناطق التي كانت جيوشهم تتوجه اليها قبل وصولهم.

وقد أدرك السلطان (قطز) هذا الجانب وتهيأ لخوض معركة متكافئة مع عدوه حشد لها كل الطاقات وهيأ لها جميع الظروف وذلل لها الصعاب واستعمل فيها أنجح الوسائل فلقد كانت المعركة بالنسبة له اضافة الى أنها معركة الوجود الاسلامي للامة فهي أيضا معركة الثأر والانتقام لآبائه الخوارزميين الذين قتلهم المغول وسلبوهم ممالكهم وشردوهم من ديارهم.

ع ـ لم ينجح المغول في التأثير على ارادة القتال لدى الجيش المصري بل على العكس من ذلك فقد عمل السلطان (قطز) على توجيه هذا السلاح الحاد بشكل فعال لتحطيم معنويات الجيش المغولي في معركة الطلائع الامامية قرب (غزة).

ف ـ لئن نجح المغول في استقطاب الامبراطور البيزنطي عن طريق المصاهرة وكذلك أمير أنطاكيا فقد فشلوا في استقطاب مملكة عكا بل على العكس من ذلك فقد نجح السلطان قطز في توقيع معاهدة صداقة وتعاون معها.

ص ـ فشل المغول في الهيمنة على السكان في بلاد الشام واستطاع السلطان (قطز) التأثير على سكان دمشق باشعال الثورة الأهلية ضدهم في دمشق في الوقت الذي كانت قواتهم تتحرك فيه لخوض المعركة مع الجيش الاسلامي في فلسطين.

ق ـ كان عنصر الاستطلاع في الجيش المغولي ضعيفا سيما بعد الهزيمة التي لحقت بهم

حركة الجيش المصري باتجاه عكا من خلال المنطقة الساحلية



خارطة معركة عين جالوت



سقوط مملكة عكا الصليبية



في (غزة) فلم يتمكنوا من معرفة حركة الجيش الاسلامي أو الميدان المتوقع أن تجري عليه المعركة لهذا فقد فاجأهم السلطان (قطز) بميدان المعركة كما فاجأهم بسلسلة من الكمائن غير المتوقعة.

ر - ان الغطرسة العسكرية لدى المغول وضعف عنصر المعلومات الميدانية لديهم قد سهل على السلطان (قطز) عملية خداعهم وتضليلهم حول حجم القوات الاسلامية كما سهل عليه مهمة استدراجهم الى (مواقع تقتيل) منتخبة لاغراض الكمائن كما مكن مشاة المسلمين على الجناح الايمن من اطلاق سهامهم على العدو من أماكن قريبة وبعد أن فعل مشاة المسلمين على الجناح الايمن وكمائن الفرسان على الجناح الايسر فعلهم في انهاك الجيش المغولي وايقاع أفدح الخسائر بين صفوفه وارباك قيادته فقد انقض عليهم الاحتياط الكبير الذي كان مخبئا خلف التلال الدفاعية المسيطرة على ميدان المعركة فدارت الدائرة عليهم وسقط قائدهم (كتبغا) قتيلا في ميدان المعركة فولوا بعد ذلك فارين بأرواحهم وقد تابعهم الجيش الاسلامي في عملية استثمار للفوز شملت اخراجهم من جميع البلاد الاسلامية.


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


الفصل الخامس

١٢ ـ سقوط مملكة عكا:

عندما انتصر السلطان (صلاح الدين) على الفرنجة في حطين عام (١١٨٧) ميلادية فقد فتح (عكا) فيما فتحه من مدن الساحل ولكن الافرنج الذين سمح لهم بالتجمع في مدينة (صور) استطاعوا بعد مضي أربع سنوات من استعادة مدينة عكا بمساعدة الحملة الرابعة التي وصلت اليها عام (١١٩١) ميلادية وقد أصبحت هذه المدينة الساحلية عاصمة لمملكة بيت المقدس طيلة قرن كامل.

أما السبب المباشر لمحاصرة هذه المدينة من قبل المماليك فقد تمثل في خرق اتفاقية الهدنة المعقودة بين السلطان (قلاوون) والملك هنري الثاني من قبل تلك الجموع التي وصلت الى عكا من ايطاليا عام (١٢٩٠) ميلادية حيث عمد هؤلاء الى قتل بعض التجار المسلمين في عكا وكان من بينهم من يحمل رقيقا للسلطان (قلاوون)[١].

وعندما وصلت الاخبار الى السلطان بذلك أرسل قوة بقيادة (شمس الدين سنقر)[٢] لاستطلاع الموقف الا أنها هوجمت من قبل فرسان الفرنج فوجدها السلطان فرصة مناسبة لفتح عكا وفي ذلك يقول ابن الفرات[٣]:

(وكان ذلك من أكبر الاسباب التي أوجبت فتح عكا).

أعلن السلطان (قلاوون) النفير العام في جميع البلاد المصرية وقد أمر باحضار المجانيق وآلات الحصار وندب الامير (عز الدين أيبك) لتجهيز هذه المعدات وتوفير الاخشاب اللازمة لها من جبال (بعلبك والبقاع)[٤] ثم خرج السلطان الى ظاهر (القاهرة) لاستكمال بقية الترتيبات ولكنه مرض فجأة وتوفي قبل أن يتمكن من تحقيق ما كان يصبو اليه.

تولى الامور بعده ابنه الملك الاشرف (خليل) حيث واصل استعداداته لفتح عكا وأعلن الجهاد المقدس[٥] وطلب من جميع الامراء المشاركة في شرف الجهاد.

ويذكر (أبو الفداء) في (مختصره) عن هذه التحضيرات قائلا[٦]: «وسارت العساكر باتجاه عكا من جميع بلاد الشام مزودة بالاسلحة والذخائر والمجانيق ومن جملتها منجنيق عظيم يسمى (المنصوري) كان يحمل وحده مئة عجلة وقد نقله الملك المظفر صاحب حماة من حصر الاكراد وكان المسلم إليّ منه عجلة واحدة لاني كنت اذ ذاك أمير عشرة».

---

١) الذهبي / دول الاسلام / الجزء الثاني / ص (١٨٨).
٢) المقريزي / السلوك / الجزء الاول / ص (٧٥٣).
٣) ابن الفرات / تاريخ ابن الفرات / الجزء الثامن / ص (٩٢).
٤) نفس المرجع السابق / ص (١١٠).
٥) نفس المرجع السابق / ص (١١١).
٦) أبو الفداء / المختصر / الجزء الرابع / ص (٢٥).

ثم أخذت قوات المماليك تتوافد الى عكا حتى اكتمل وصولها فأمر الملك الاشرف (خليل) بنصب المجانيق حولها وكانت اثنين وتسعين منجنيقا منها خمسة عشر كبيرا يرمي بقنطار دمشقي وأكبر[١].

ويذكر أبو الفداء بأنه قد اجتمع حول عكا من القوات والمعدات ما لم يجتمع على غيرها في عهد المماليك[٢] ثم يضيف قائلا[٣]:

«أما جيش دمشق فقد كان يقف في مواجهة فرقة الاسبيتارية وأما قوات مصر فقد تمركزت ما بين نقطة تقابل الاسوار الشمالية والجنوبية للمدينة ونصبت خيمة السلطان قريبا من الشاطىء»، وقد قدر (سعيد عاشور) عدد القوات الاسلامية قائلا[٤]: «وقد قدرت أعداد القوات الاسلامية بمئتين وعشرين ألفا من المشاة والفرسان أما الفرسان فكانوا ستين ألفا وأما المشاة فقد كانوا مئة وستين ألفا.

أما قوات الفرنجة داخل أسوار المدينة فقد بلغت ألف فارس مضافا لها ما بين اثني عشر الفا الى أربعة عشر ألفا من المشاة وكانت أسوارها منيعة وأبراجها محصنة.

بدأ حصار المسلمين لعكا في الخامس من نيسان عام (١٢٩١) ميلادية واستمر لمدة شهر ونصف تقريبا حيث استسلمت حاميتها بتاريخ (١٨ ايار عام ١٢٩١) ميلادية[٥]، بعد أن أبلي الطرفان في القتال بلاء حسنا.

وبذلك زال آخر معاقل الفرنج من بلاد الشام وقد عقب القلقشندي على هذا الفتح بقوله[٦]:

«وتكاملت جميع البلاد الساحلية للاسلام».

أما ابن كثير فقد قال[٧]:

«ولم يبق بالسواحل ولله الحمد معقل للفرنج الا بأيدي المسلمين حيث أراح الله منهم البلاد والعباد».

---

١) أبو المحاسن / النجوم الزاهرة / الجزء الثامن / ص (٥ ـ ٨)
٢) أبو الفداء / المختصر / الجزء الرابع / ص (٢٥).
٣) نفس المرجع السابق / ص (٢٦).
٤) سعيد عاشور / العصر المماليكي / ص (٧٢).
٥) الذهبي / دول الاسلام / الجزء الثاني / ص (١٩٠).
٦) القلقشندي / مآثر الانافة في معالم الخلافة / الجزء الثاني / ص (١٢٢).
٧) ابن كثير / البداية والنهاية / الجزء الثالث عشر / ص (٣٢١).

أما الذهبي فقال:

«وتنظفت الشام من الفرنج».

وأما أبو الفداء فقد قال[1]:

«وتطهرت السواحل والشام من الفرنج».

وهكذا تم تحرير فلسطين نهائيا من أيدي الغزاة الأوروبيين.

---

١) الذهبي / دول الاسلام / الجزء الثاني / ص (١٩١) .
٢) أبو الفداء / المختصر / الجزء الرابع / ص (٢٧) .

قائمة المراجع والمصادر
العسكرية الاسلامية في العصور الوسطى

ابن الاثير
الكامل في التاريخ/ عز الدين ابو الحسن علي بن محمد بن عبد الواحد الشيباني، دار صادر، بيروت ١٩٦٦.

ابن شداد
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية/ القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع، مطبعة التمدن، القاهرة.

ابن كثير
البداية والنهاية/ عماد الدين اسماعيل بن كثير القرشي، مطبعة السعادة، القاهرة.

ابن الفرات
تاريخ ابن الفرات/ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت.

ابن واصل
مفرج الكروب في اخبار بني أيوب/ جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، المطبعة الاميرية، القاهرة.

ابن الوردي
تتمة المختصر في اختبار البشر/ سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد.

أبو شامة/ اشهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان المقدسي.
كتاب الروضتين في اختبار الدولتين الورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي، المؤسسة المصرية، القاهرة.

ابو الفداء
المختصر في اختبار البشر/ الملك المؤيد عماد الدين بن اسماعيل بن الملك الافضل نور الدين.

ابو المحاسن
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة/ جمال الدين ابو المحاسن، القاهرة.

بسام العسلي
الايام الحاسمة في الحروب الصليبية/ بسام العسلي، دار النفائس.

جوزيف نسيم
العرب والروم اللاتين في الحروب الصليبية الاولى، جوزيف نسيم.

د. حسن ابراهيم حسن
تاريخ الاسلام/ د. حسن ابراهيم حسن، دار الاندلس، بيروت.


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الــذهبــي

دول الاسلام/ شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد بن فايماز، تحقيق فهيم شلتوت، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.

ر. سي. سميــل

الحروب الصليبية/ ر. سي. سميل، ترجمة سامي هاشم.

د. سعيد عاشــور

تاريخ الحركة الصليبية/ دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة البيان، القاهرة.

سعيد أحمد برجــاوي

الحروب الصليبية في المشرق/ سعيد برجاوي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، طبعة أولى.

سبط بن الجو زي

مرآة الزمان في تاريخ الاعيان/ أبو المظفر يوسف.

سيد أمير علــي

مختصر تاريخ العرب/ سيد امــير علي، تــرجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للمــلايين، بيروت.

صبحي عبد الحميــد

معارك العرب الحاسمة/ صبحي عبد الحميد.

عباس محمود العقــاد

العبقريات الاسلامية/ عبقرية خالد بن الوليد، العقاد، مطبعة دار الآداب، بيروت.

عمر كمال توفيــق

مملكة بيت المقدس/ عمر كمال توفيق.

غوستــاف لوبــون

حضارة العرب/ غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر.

فيليــب حتــي

تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين/ ترجمة كمال اليازجي، مراجعة جبــرائيل جبــور، دار الثقافة، بيروت.

القلقشنــدي

صبح الاعشى في صناعة الانشاء/ أبو العباس احمد بن علي بن أبي اليمن، القاهرة.

محمد الخضــري بــك

محاضرات تاريخ الامم الاسلامية الدولة العباسية/ الشيخ محمد الخضري بك.

ميخائيل جميعان

المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية.

قدري القلعجي

صلاح الدين الايوبي/ قدري القلعجي.

كرال بروكلمان

تاريخ الشعوب الاسلامية/ كارل بروكلمان.

المقريزي

السلوك لمعرفة دول الملوك/ تقي الدين احمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى.

العماد الاصفهاني

الفتح القسي في الفتح القدسي/ ابو عبد الله محمد بن صفي الدين بن نفيس، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

ايريك موير

ليدل هارت مدخل الى التاريخ العسكري/ تعريب اكرم الديري والهيثم الايوبي.

محمود شيت خطاب

بين العقيدة والقيادة/ محمود شيت خطاب.

هاميلتون جب

صلاح الدين الايوبي/ هاميلتون جب، ترجمة يوسف ابيش، ١٩٧٣.

د. يوسف غوانمة

امارة الكرك الايوبية/ يوسف غوانمة، منشورات بلدية الكرك، ١٩٨٠.

الموسوعة العسكرية، المجلد الاول.

٠٣٣ و ٣٥٥

قاسم محمد صالح

العسكرية الاسلامية في العصور الوسطى

قاسم محمد صالح . عمان : المؤلف ١٩٨٧

(١١٦) ص

ر.أ ١٩٨٧/٦/٢٥م

١ ـــ التاريخ العسكري　　　أ ـــ العنوان

(تمت الفهرسة بمعرفة مديرية المكتبات والوثائق الوطنية)